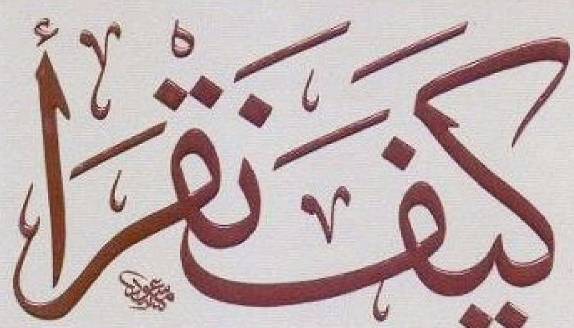
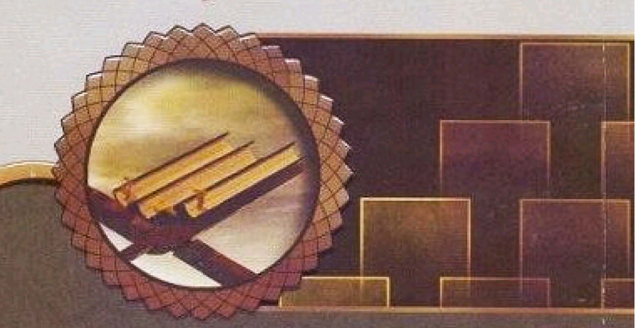




كيف نقرأ

السبع الطوال

مرحلة بناء الدولة



تقديم والد المؤلف

صالح بن محمد العُويِّد

أعده

عصام بن صالح العُويِّد

الطبعة الأولى

دار الحضارة للنشر والتوزيع

كيف نقرأ السبع الطوال؟

مرحلة بنــاء الدولــة

تقديم والد المؤلف

صالح بن محمد العويّد

أَعَــدَّهُ

عصام بن صالح العويد

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ح عصام صالح محمد العويـــد، ١٤٣٧هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

العويد، عصام صالح

كيف نقرأ السبع الطوال./ عصام صالح العويد-الرياض ١٤٣٧هـ

ص ؛ ٠٠×٠٠ سم

ردمك: ٥ -١٥٤٨- ٠٢- ٦٠٣- ٩٧٨-

١ -القرآن- مباحث عامة ٢ -القرآن- سور الآيات أ - العنوان

ديوي ٢٢٩ ١٤٣٧/٧٢٤١

رقم الإيداع: ١٤٣٧/٧٢٤١

ردمك: ٥ -١٥٤٨- ٠٢- ٦٠٣- ٩٧٨-

الطبعة الأولى

١٤٣٨هـ - ٢٠١٧م

دار الحضارة للنشر والتوزيع

ص.ب ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥

هـاتف: ٢٤١٦١٣٩ - ٢٤٢٢٥٢٨ فاكس: ٢٧٠٢٧١٩

فاكس: ٢٤٢٢٥٢٨ تحويلة ١٠٣

الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨


بسم الله الرحمن الرحيم

كيف نقرأ السبع الطوال ؟

التعريف بحزب[1] السبع الطوال :

حزب السبع الطوال هو الحزب الأول ترتيباً، يأتي بعد فاتحة الكتاب، ويبدأ من البقرة حتى سورة براءة على القول الراجح كما سيأتي، فهذه ثمان سور على اعتبار أن الأنفال والتوبة سورة واحدة كما سيأتي تفصيله في مطلع التوبة -بعون الله تعالى-هذا الحزب هو أفضل أحزاب القرآن بعد حزب المفصل، وقد ورد في فضل البقرة وآل عمران أحاديث متواترة، وورد في تعظيم النساء والمائدة والأنعام آثار مشهورة، وأخرج الإمام أحمد[2] وابن نصر في " قيام الليل"[3] والطحاوي في "مشكل الآثار"[4]وغيرهم عن أم المؤمنين عائشة رضي الله عنها عن النبي ﷺ أنه قال: **"من أخذ السبع الأول من القرآن فهو حبر"**، وصححه الحاكم والألباني وغير واحد من المتأخرين، لكن الأظهر أن الحديث معلول، وأشار ابن كثير إلى أنه "غريب"[5]، وأعله مقبل الوادعي ود.سعد الحميد وأبو إسحاق الحويني، وهو كما قالوا، لكنّ فضل سور السبع الطوال على غيرها من سور القرآن ظاهر جداً، وإنما يستثنى من ذلك سور المفصل.

---

(١) تسمية ما يجمع هذه السور . السبع الطوال . بالحزب لم يشتهر عند المفسرين؛ لكن ما يدل عليه ثابت من أيام الصحابة ﷺ، والأمر في هذا يسير، وقد كان الصحابة يحزبون القرآن فيقرأونه في ثلاث ليال، وبعضهم في سبع، وبعضهم في شهر، وروى سعيد بن منصور في سننه (ر١٤٦) : "كان ابن مسعود يختم القرآن في ثلاث، لا يستعين عليه من النهار إلا باليسير". وأخرج الطبراني كما في "المجمع" (٢/٢٦٩)، عن الأحوص قال: قال ابن مسعود: "لا يُقرأ القرآن في أقل من ثلاث، اقرأوه في سبع، ويحافظ الرجل على حزبه . وقال: رجاله ثقات.

وفي مجموع الفتاوى ابن (٢ /٣٤١) قال شيخ الإسلام: فَصْل: في [تحزيب القرآن] وفي [كم يقرأ] ... وقال بعضهم: في ثلاث وفي خمس، وأكثرهم على سبع. أهـ

ومن حزب القرآن في ثلاث ليال فحزبه في الليلة الأولى هنّ السبع الطوال كما هو ظاهر .

(٢) ح(٢٤٤٤٣).

(٣) (١/ ١٧٠).

(٤) ح (١٣٧٧).

(٥) تفسير ابن كثير (١ / ١٥٥) .

وفي تعيين السبع الطوال أقوال أشهرهما قولان :

القول الأول: أن السبع الطول هي البقرة وآل عمران والنساء والمائدة والأنعام والأعراف ويونس، وهو قول سعيد بن جبير رواه عنه أبو عبيد وابن جرير وابن أبي حاتم والبيهقي وغيرهم . وقال به من قراء الأمصار الأوائل: عطية بن قيس، وشداد بن عبيد الله، ويحيى بن الحارث الذماري، وقد أسند ذلك عنهم أبو عبيد القاسم بن سلام .

وروي هذا القول عن ابن عباس رواه ابن الضريس نصاً وابن جرير استنباطاً

وقال الثعلبي: عليه أكثر المفسرين[١].

القول الثاني: أنها البقرة، وآل عمران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، والأنفال مع التوبة، وهذا ما رجحه عثمان بن عفان ومن وافقه من الصحابة، وهو قول سفيان بن عيينة، ونسبه ابن عطية في تفسيره إلى ابن عمر وابن مسعود وابن عباس[٢]. وعليه أكثر المتأخرين من المفسرين.

والقول الثاني أظهر – والعلم عند الله – بدليلين:

الدليل الأول: ما رواه أحمد[٣] وأبو داود[٤] والترمذي[٥] والنسائي[٦]، عن ابن عباس، قال: قلت لِعثمان: "ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمان الرحيم **[ووضعتموهما في السبع الطُّوَل]**[٧]**ما حملكم على ذلك؟** فقال عثمان: إن رسول الله كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول: ضعوا هذه في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل

---

(١) الكشف والبيان عن تفسير القرآن(٥/٣٥١).

(٢) المحرر الوجيز(٣/٣٧٣).

(٣) ح(٣٩٩).

(٤) (٧٨٦).

(٥) (٣٠٨٦)

(٦) (٧٩٥٣).

(٧) ما بين المعكوفين زيادة عند ابن جرير الطبري في تفسيره (١/ ١٠٢).

بالمدينة، وبراءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيها بقصتها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فظننت أنها منها؛ فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمان الرحيم" وهو حديث حسن[1].

ويقوي هذا الأثر أن المصحف العثماني تواتر بين المسلمين وفقاً لما دلَّ عليه مضمون هذا الأثر، ولم يرد تفسير آخر لتقدم الأنفال والتوبة على يونس إلا هذا.

الدليل الثاني: أن سورة يونس تختلف في استهلالها وموضوعها عما سبقها من السبع الطوال، فهي أول ذوات الراء (الر) وشبهها بما بعدها بيّن بخلاف ما قبلها، فما قبلها إنما هي سور أحكام حلال وحرام، أما سورة يونس وما بعدها فهي في الأمم المكذبة بالحق وما جرى لهم مع رسلهم[2].

---

(١) حسن الترمذي هذا الأثر، وفي بعض النسخ "حسن صحيح"، وصححه ابن حبان والحاكم، وقال ابن كثير في فضائل القرآن (١٤٣): إسناده قوي جيد.

وقد ضعفه بعضهم بيزيد الفارسي راويه عن ابن عباس، قال الحافظ في التقريب عنه: " مقبول"، وقال عنه أبو حاتم "لابأس به" التقريب (ر ٧٧٩٦)، والتهذيب (ر ٧٢١)، وأيضا هو من التابعين؛ والجهالة في التابعين ليست كما في من دونهم، وقد روى عن ابن عباس غير ما حديث، ولم يُجرح بل صحح حديثه عدد من الأئمة، وعلى قلة حديثه لم يرو ما يستنكره عليه الأئمة، فحديثه كما قال ابن كثير: جيد.

(٢) أما ما ذكره شيخ المفسرين الإمام الطبري في تفسيره (١/ ١٠٢) حيث قال: "والسبع الطُّوَل: البقرةُ، وآل عِمْران، والنساء، والمائدة، والأنعام، والأعراف، ويونس، في قول سعيد بن جبير.

حدثني بذلك يعقوب بن إبراهيم، قال: حدثنا هُشيم، عن أبي بِشر، عن سعيد بن جبير. وقد روي عن ابن عباس قولٌ يدلّ على موافقته قولَ سعيد هذا.

وذلك ما حدثنا به ... وذكر القصة السابقة بين عثمان وابن عباس، ثم قال: فهذا الخبر ينبئ عن عثمان أنه لم يكن تَبيَّن له أنّ الأنفال وبراءةَ من السبع الطُّوَل، ويصرِّح عن ابن عباس أنه لم يكن يَرَى ذلك منها" اهـ

وليس الأمر كما ذكر أبو جعفر -رحمه الله- إلا إن قصد بالتبين اليقين، فعثمان ومن وافقه من الصحابة كانوا يرجحون أن الأنفال والتوبة من السبع الطوال؛ ولذا سأله ابن عباس عن سبب هذا الفعل منهم، وقد أورد ابن جرير الأثر السابق وفيه قول ابن عباس لعثمان: "**ووضعتموهما في السبع الطُّوَل، ما حملكم على ذلك؟**"، فهذا هو اختيار عثمان ومن وافقه من الصحابة، وعليه جرى ترتيب المصحف العثماني.

• مقصود حزب السبع الطوال :

يدور هذا الحزب حول محور ثلث الأحكام؛ وهذا لا يعني حصر الحزب كاملا فيها، كما هو الحال في دوران السور المكية على التوحيد، فالقرآن ثلاثة أثلاث: توحيد، وأحكام، وأخبار، وغالب الأحكام في هذا الحزب تتعلق بالضرورات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، وما يتبعها وينبني عليها ولوازم حفظها وتكميلها، وأعظم هذه الضرورات هو حفظ الدين ورأسه التوحيد وما عداه تبع لها.

• السبع الطوال وأركان بناء المجتمع :

بين الله لنا في السبع الطوال أركان بناء المجتمع المسلم الذي يريده لعباده:

- ففي البقرة بيّن أنه مجتمع يعظم الوحي ويتبع أحكامه ولا يروغ عنه، ومن اتباع أحكامه التسليم له فيما يهب له الخلافة والإمامة والملك في الأرض، كما ذكر ذلك في تولية آدم عليه السلام الخلافة وتولية طالوت الملك.

- وفي آل عمران بيّن أن هذا الاتباع المأمور به في البقرة لا يمكن إلا بعلم مُحكم لا شبهة فيه، فكان شعار السورتين "لاعمل إلا بعلم" و "لا علم إلا بعمل".

- وفي النساء هو مجتمع عدل يدفع الظلم، ويأباه، وينتصر للمظلوم؛ خصوصاً من الضعفاء والسفهاء والمساكين.

- وفي المائدة هو مجتمع صادق الكلمة لا ينقض العهد مع الله أو رسوله أو المؤمنين، بل حتى مع الكافر المحارب، فهو يعزر العهد ويعظم شأنه.

- وفي الأنعام بين أن رحى هذا المجتمع ومرتكزه الأعظم هو التوحيد، فالأنعام كلها في أحكام التوحيد.

- وفي الأعراف هو مجتمع حاسم عازم، عرف الحق فتبعه ولم يتردد، بل قطع كل العوائق التي تحول دونه.

- وجاءت الأنفال وقد تكوّن المجتمع المسلم عقيدة وأخلاقاً ودولة، فذكرت سنن الله الكونية والشرعية في النصر والتمكين؛ ليكون له حامية تذود عن الدين والعرض والأرض.

- وختمت السبع الطوال بسورة براءة؛ لتبين واجب أهل الإسلام حال تمام قوتهم في تعاملهم مع أعدائهم في الداخل والخارج، وفي العصاة إذا تابوا وأنابوا.

لقد افتتحت قصص السبع الطوال بقصة الخلافة والاستخلاف في الأرض، وختمت بقصة الثلاثة الذين خلفوا، ففي الأولى أبان عن الغاية الشرعية من خلق الإنسان، وفي الأخرى أبان عن الحقيقة الكونية وهو الضعف الذي لا ينفك عنه الإنسان؛ ولذا ـــ والعلم عند الله ـــ كان أول أمر في هذا الحزب العظيم هو الأمر بالتوحيد ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعۡبُدُواْ رَبَّكُمُ﴾ [البقرة:٢١]، وأول نهي فيها هو النهي عن الشرك ﴿فَلَا تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ أَندَادٗا﴾ [البقرة:٢٢]، وأول أمر في براءة هو بإعلان البراءة من المشركين، وآخر أمر فيها وفي حزب السبع الطوال هو الأمر بالقتال الغليظ، فبهما يتحقق تمام حفظ الدين والدنيا ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ قَـٰتِلُواْ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلۡكُفَّارِ وَلۡيَجِدُواْ فِيكُمۡ غِلۡظَةٗۚ﴾[التوبة: ١٢٣].

كيف نقرأ سور القرآن الكريم ؟

كل سورة من كتاب الله لها ولابد :

- موضعها من المصحف العثماني (حزبها)
- مكان التنزل، موضعها المكاني، أي: (أين نزلت؟)
- زمن التنزل، موضعها الزماني، أي: (متى نزلت؟)
- موضوعها ومقصودها الذي ينظِم جميع آياتها (فيمَ نزلت؟)
- وقد يكون لبعض السور سبب في تنزلها يفيد في كشف مقصودها.
- حال التنزل؛ وهو مجموع ما دل عليه حزب السورة ومقصدها ومكان وزمان وسبب التنزل؛ ولذا روى البخاري عن عبدالله بن مسعود ﷺ قال: "والله الذي لا إله غيره ما نزلت سورة من كتاب الله إلا وأنا أعلم أين نزلت؟ وفيما أنزلت؟ ولو أعلم أحداً أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل، لركبت إليه"[١].

ولأجل الوقوف على ما سبق لا تكفي القراءة المجردة لكتب التفسير، بل لابد من الوقوف على حال التنزل، ويعرف بما يلي:

– **حزب السورة**: هذا معرفته يسيرة، فهناك حزب السبع الطوال من البقرة حتى براءة، ثم ذوات الراء من يونس حتى الحجر، ثم سور متفرقات حتى الطواسيم الثلاث، وهي الشعراء والنمل والقصص، ثم ذوات (الم) في النصف الأخير من القرآن من العنكبوت حتى السجدة، ثم متفرقات حتى السبع الحواميم من غافر حتى الأحقاف، ثم ثلاث متفرقات حتى المفصل من (ق) إلى الناس.

– **مقصد السورة**: هو الخيط الناظم لجميع آياتها، وهو علم مأثور من زمن الصحابة إلى زمننا هذا، وذكرتُ دلائل ذلك في كتابي "المراحل الثمان"[٢]، ويُعرف المقصد تارة بالنص عليه كما في الفاتحة فهي (أم القرآن)، وقد يكون بتوارد السلف عليه دون خلاف بينهم كحال النحل (النِعم)، وقد ينكشف للقارئ بتأمل حزب السورة التي هي منه، واسمها، وهل لها اسم

---

(١) ح(٥٠٠٢).

(٢) يُنظر المرحلة السادسة من الكتاب ص ١١١.

واحد أو أكثر؟، ومطلعها وختامها واللفظ أو المعنى الذي كثر دورانه فيها، وعلاقة ذلك بقصصها وأمثالها، ونحو ذلك.

وقد تختلف الأنظار في مقصد سورة ما، ويصعب الترجيح بينها، كالحال في سورة يونس وهود، وأحياناً يكون المقصد ظاهراً لا ينبغي الاختلاف فيه كالحال في سورة مريم والنور والمجادلة، وقد تكون المقاصد المذكورة كلها صحيحة لا تعارض بينها، وقد يكون بعضها أصح من بعض، وكل ذلك محلّ اجتهاد لمن ملك أداته، وفائدة معرفة المقصد ظاهرة؛ فإن القارئ -خصوصاً للسور الطوال- لا يكاد ينتظم له معنى حتى ينتقل إلى معنى ثان وثالث ورابع وهكذا، وحاشا هذا الكلام المعجز المُحكم أن يُظن به ذلك، فلو وقع ذلك من رجل فصيح، لعُدّ عياً وعيباً؛ فكيف بكلام رب العالمين.

- **مكان التنزل وزمنه:** يعرف بالنص من الصحابة، أو ممن أخذ عنهم، أو بتتابع أهل العلم على قول واحد فيها دون خلاف معتبر.

مثال الأول: ما في الصحيحين: أن يهودياً قال لعمر ﷺ: آية في كتابكم تقرؤونها، لو علينا نزلت معشر اليهود، لاتخذنا ذلك اليوم عيدا. قال: فأي آية؟ قال:﴿ٱلۡيَوۡمَ أَكۡمَلۡتُ لَكُمۡ دِينَكُمۡ وَأَتۡمَمۡتُ عَلَيۡكُمۡ نِعۡمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلۡإِسۡلَٰمَ دِينٗاۚ﴾[المائدة:٣]، فقال عمر: إني لأعلم أي يوم نزلت هذه الآية، نزلت يوم عرفة، في يوم جمعة[(١)] .

ومثال الثاني: توارد المفسرين على أن البقرة وآل عمران والنساء نزلت بعد الهجرة أوائل نزول النبي ﷺ في المدينة.

وسبب التنزل عند المفسرين على قسمين:

١- سبب صريح، هو على نوعين:

أ) سبب خاص يتعلق بآية أو آيات، كسبب تنزل آية الحجاب كما روى البخاري في صحيحه عن أنس قال: " قال عمر ﷺ: قلت: يا رسول الله! يدخل عليك البر والفاجر، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب، فأنزل الله آية الحجاب"[(٢)]، وسبب نزول آيات النفقة في

(١) البخاري ح(٧٢٦٨)، مسلم ح(٣٠١٧).

(٢) ح(٤٧٩٠).

البقرة أو آيات المباهلة في آل عمران، وغيرها.

وهذا ليس مراداً عندنا؛ لأن بحثنا فيما يتعلق بالسورة كاملة.

ب) سبب عام يتعلق بنزول السورة كاملة أو بمطلعها: كسبب نزول الإخلاص والكوثر والضحى، وكسبب نزول مطلع الأنفال والمجادلة والتحريم والروم وغيرها.

٢- **سبب يُفهم من حال التنزل**، ويُقصد به المعنى العام الذي نزلت السورة فيه: كسبب نزول آل عمران، وهو محاجة النصارى، وسبب نزول براءة في البراءة من المشركين وبيان حال المنافقين، والنور في حماية المجتمع من الفاحشة، وهكذا.

وهذان الأخيران[1] هما المقصود في البحث؛ لأثره في معنى السورة كاملة، بخلاف الأول، وهو السبب الخاص فلا علاقة له بموضوع مقصود السور.

---

(١) أي : رقم (ب) من ١ ورقم ٢ .

كيف نقرأ سورة البقرة ؟

البقرة من عظائم سور القرآن العظيم ويكفي أنها متضمنة لأعظم آية فيه، والأحاديث والآثار في فضلها مستفيضة بل متواترة، وكان في زمن الصحابة من قرأ البقرة على طريقة السلف بالتدبر والامتثال يعدونه من الأحبار.

كان النبي ﷺ يقدم من حفظ البقرة ويجعله أميراً؛ فقد روى الترمذي والنسائي وابن ماجه عن أبي هريرة ﷺ قال: "بعث رسول الله ﷺ بعثاً وهم ذوو عدد، فاستقرأهم، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سناً فقال :(ما معك يا فلان؟) **قال: معي كذا وكذا والبقرة، قال : (أمعك البقرة؟)، فقال: نعم، قال : (فاذهب فأنت أميرهم)، فقال رجل من أشرافهم : والله يا رسول الله، ما منعني أن أتعلم البقرة إلا خشية ألا أقوم بها، فقال رسول الله ﷺ (تعلموا القرآن فاقرأوه وأقرئوه، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكاً يفوح بريحه كل مكان، ومثل من تعلمه فيرقد وهو في جوفه كمثل جراب وكئ على مسك)**"[(١)].

والبقرة من صعائب وشدائد سور القرآن؛ فهي سورة ثقيلة متينة، فيها المحكم والمتشابه، والناسخ والمنسوخ، والحربي والسلمي؛ ولذا روى مالك في الموطأ أنه بلغه أن ابن عمر رضي الله عنهما مكث على البقرة ثماني سنين يتعلمها[(٢)]، وجاء عن عمر ﷺ كما عند البيهقي في الشعب[(٣)] تعلم البقرة في اثنتي عشرة سنة فلما ختمها نحر جزوراً.، وكان ابن مسعود ﷺ يسميها: سنام القرآن[(٤)]؛ إشارة إلى علوها وصعوبة الوصول إليها، روى الدارمي عَنْ خالدِ بنِ

---

(١) أخرجه الترمذي في كتاب: فضائل القرآن – باب: ما جاء في فضل البقرة وآية الكرسي (٢٨٧٦) (٥/١٥٦)، هذا لفظ رواية الترمذي، ثم قال: هذا حديث حسن.

(٢) ح (٦٩٥).

(٣) ح (١٨٠٥) وفي سندها ضعف نبه عليه ابن كثير في مسند الفاروق.

(٤) **هذا حديث مختلف فيه فرُوي مرفوعاً وموقوفاً والموقوف أصح** ، فقد أخرجه الحاكم (١ / ٥٦١) من طريق **عمرو بن أبي قيس عن عاصم** ابن أبي النجود عن أبي الأحوص عن عبد الله بن مسعود مرفوعا ، وقال الحاكم : " صحيح الإسناد " . وسكت عنه الذهبي. وقال الألباني في السلسلة الصحيحة (٢ / ٨٧): هو عندي حسن . **لكن عمرو بن أبي قيس قد خولف في رفعه**، فقد أخرجه الدارمي (ر٣٣٧٧) من طريق **حماد بن سلمة** والطبراني في

معدانَ قالَ: "سورةُ البقرةِ هِيَ فُسطاطُ القرآنِ"[1]. والفُسْطاط هو بالضم والكسر: المدينة التي فيها مُجْتَمَع الناس[2].

والآثار في هذا المعنى كثيرة، ومع هذا يريد الواحد منا في زمن نقص العلم وضعف الآلة أن يتعلمها في أيام ويستكثر عليها حتى أشهرا معدودة.

ولفهم هذه السورة العظيمة ألخص أبرز ما ينبغي تعلمه منها :

أولاً : حزبها "موضعها من المصحف العثماني"

هي أول حزب السبع الطوال من البقرة حتى التوبة باعتبار الأنفال والتوبة سورة واحدة، وهو ثاني أحزاب القرآن فضلاً بعد المفصل، وموضوع الحزب كله يدور حول ثلث الأحكام، فالقرآن ثلاثة أثلاث: توحيد، وأحكام، وأخبار؛ وغالب هذه الأحكام الواردة في البقرة تتعلق بحفظ الضرورات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، وبحفظها يتحقق الاستخلاف في الأرض المذكور في مطلع البقرة.

المعجم الكبير (٩ / ١٢٩) من طريق **حماد بن زيد** والبيهقي في شعب الإيمان - (٢ / ٤٨٨) من طريق **أبي بكر بن عياش ثلاثتهم عن عاصم عن أبي الأحوص قال: قال ابن مسعود .. به موقوفاً** . وهذا أصح من المرفوع فعمرو بن أبي قيس وإن كان لا بأس فلا يحتمل في مخالفة الحمادين أو أحدهما .

وروي مرفوعاً عن سهل بن سعد ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: (إن لكل شيء سناماً، وإن سنام القرآن البقرة، وإن من قرأها في بيته ليلة لم يدخله الشيطان ثلاث ليال، ومن قرأها في بيته نهاراً لم يدخله الشيطان ثلاثة أيام)(أخرجه ابن حبان في صحيحه (٧٨٠) (٣/٥٩)، والطبراني في الكبير (٥٨٦٤) (٦/١٦٣) وأبو يعلى في مسنده (٧٥٥٤) (١٣/٤٦٥)، من طريق **خالد بن سعيد المدني عن أبي حازم عن سهل بن سعد** .. به . وهذا إسناد ضعيف لحال خالد بن سعيد؛ فقد ذكره ابن حبان في الثقات، وقال ابن المديني لا نعرفه، وساق له العقيلي خبراً استنكره وجهله ابن القطان. ينظر: تهذيب التهذيب (٩ / ٢٣) ، وتفرده عن أبي حازم مما يزيد الإسناد نكارة.

وجاء عن أبي هريرة مرفوعاً: "لكل شيء سنام وسنام القرآن البقرة "أخرجه الترمذي (٥ / ١٥٧) وقال: غريب لا نعرفه إلا من حديث حكيم بن جبير . وحكيم هذا ضعيف وتفرّد به عن أبي صالح ولا يفرح بمثل هذا لا في الأصول ولا في الشواهد .

والحاصل أنه لا يصح إلا موقوفاً على ابن مسعود.

(١) سنن الدارمي ح(٣٤١٩)

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٣/٤٤٥).

ثانياً: متى وأين نزلت؟ (الموضع الزماني والمكاني)

هي مدنية باتفاق المفسرين، بل حكى ابن حجر في الفتح الاتفاق على أنها أول سورة نزلت بالمدينة[1]. قال السيوطي في الإتقان: "وفي دعوى الاتفاق نظر"[2]. والأمر كما قال السيوطي، لأن الخلاف شاذ.

واستمر نزولها بعد ذلك لسنوات، بل ونزل فيها ما يُقال إنه آخر القرآن نزولاً، **يقول الطاهر ابن عاشور**: "نزلت سورة البقرة بالمدينة بالاتفاق، وهي أول ما نزل في المدينة، وحكى ابن حجر في «شرح البخاري» الاتفاق على ذلك، وقيل: نزلت سورة المطففين قبلها بناء على أن سورة المطففين مدنية، ولا شك أن سورة البقرة فيها فرض الصيام، والصيام فرض في السنة الأولى من الهجرة، فرض فيها صوم عاشوراء ثم فرض صيام رمضان في السنة الثانية لأن النبيء ﷺ صام سبع رمضانات أولها رمضان من العام الثاني من الهجرة، فتكون سورة البقرة نزلت في السنة الأولى من الهجرة في أواخرها أو في الثانية.

وفي البخاري عن عائشة «ما نزلت سورة البقرة إلا وأنا عنده» (تعني النبي ﷺ) وكان بناء رسول الله على عائشة في شوال من السنة الأولى للهجرة، وقيل في أول السنة الثانية، إلا أن اشتمال سورة البقرة على أحكام الحج والعمرة وعلى أحكام القتال من المشركين في الشهر الحرام والبلد الحرام ينبيء بأنها استمر نزولها إلى سنة خمس وسنة سِتٍّ كَمَا سَنُبَيِّنُهُ عِنْدَ آيَةِ: ﴿فَإِنۡ أُحۡصِرۡتُمۡ فَمَا ٱسۡتَيۡسَرَ مِنَ ٱلۡهَدۡيِۖ﴾ [١٩٦] ، وَقَدْ يَكُونُ مُمْتَدًّا إِلَى مَا بَعْدَ سَنَةِ ثَمَانٍ كَمَا يَقْتَضِيهِ قَوْلُهُ تعالى: ﴿ٱلۡحَجُّ أَشۡهُرٞ مَّعۡلُومَٰتٞۚ﴾ [١٩٧] "- الْآيَاتِ إِلَى قَوْلِهِ- "**لِمَنِ اتَّقى**"[١٩٧- ٢٠٣] ، عَلَى أَنَّهُ قَدْ قِيلَ إِنَّ قَوْلَهُ تعالى: ﴿وَٱتَّقُواْ يَوۡمٗا تُرۡجَعُونَ فِيهِ إِلَى ٱللَّهِۖ﴾[٢٨١] الآية هو آخر ما نزل من القرآن، وقد بينا أنه قد يستمر نزول السورة فتنزل في أثناء مدة نزولها سور أخرى[3].

---

(١) فتح الباري (٨/١٦٠).

(٢) الإتقان (١/ ٩٦).

(٣) التحرير والتنوير (١/ ٢٠١).

ومن هذين الموضعين الزماني والمكاني يتبين أن السورة نزلت في بدء تكوين الدولة وتأسيس الشريعة الحاكمة الحافظة لضرورات الحياة، وصاحب ذلك الاحتكاك ببني إسرائيل وباليهود بصفة أخص.

ثالثاً: فيمَ نزلت ؟ (مقصودها)

مقصود السورة يستنبط من زمان ومكان التنزل، ومطلع وختام السورة، وما كثر دورانه فيها لفظا أو معنى وقصصها وأمثالها، ويُستدل عليه أيضاً من اسمها.

والبقرة سبق أنها نزلت في بدء تكوين الدولة وتأسيس الشريعة الحاكمة، وصاحب ذلك الاحتكاك ببني إسرائيل وباليهود بصفة أخص.

ومطلعها في ذكر تقسيم الناس إلى مؤمن وكافر ومنافق، وختامها في الفرق بين جواب بني إسرائيل، وجواب صحابة الرسول ﷺ.

واسمها أيضاً (البقرة) في تحذير الأمة المحمدية من أن تكون استجابتهم لأوامر نبيهم كاستجابة أصحاب البقرة لنبيهم، ففي الأول (أتتخذنا هزوا)، وفي الآخِر (وما كادوا يفعلون)، ثم كان العقاب (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك...).

وقصص السورة وأمثالها كذلك أيضاً كما سيأتي -بمشيئة الله-، فمقصود السورة -والعلم عند الله- في: **تعظيم أمر الوحي، وبيان موقف الناس منه، ومآل كل فريق.**

فهي جاءت تحذر هذه الأمة المحمدية من سلوك جادة اليهود في موقفهم من أوامر ونواهي أنبيائهم كما جرى من أصحاب البقرة.

وهي سورة أوامر ونواهي، قال ابن العربي في (أحكام القرآن): "سمعت بعض أشياخي يقول: فيها ألف أمر، وألف نهي، وألف حكم، وألف خبر".[1]

فلتحذر هذه الأمة في موقفها من هذه الأحكام طريق المغضوب عليهم، فأمة محمد ﷺ إن فهمت أوامر ونواهي (البقرة) فامتثلت نجت، وإن أعرضت لا تدري ماذا تقرأ، ولا تستجيب لما تسمع؛ فالعاقبة قسوة القلوب كما سبق.

---

(١) (١٥/١).

وقد وقفت على من ذكر غير مقصد لالبقرة، فمنهم من قال هي في: العلم، وقيل في: التقوى، وسمعت شيخنا معالي الشيخ صالح آل الشيخ: هي في حفظ الضرورات الخمس.

كل هذه معانٍ صحيحة في نفسها، لكن القولين الأولين في معان عامة يمكن أن تنزل على أي سورة، وما ذكره شيخنا هو جزء من مقصود السورة، والعلم عند الله.

رابعا : فضائل السورة

فضائل البقرة كثيرة جداً، ومن تأمل النصوص النبوية والآثار السلفية وجد هذه الفضائل تدور على أمور أربعة:

١- **الوقاية والعلاج من أمراض الشياطين النفسية والعضوية** بالسحر والعين ونحوها، ففي صحيح مسلم "**اقرؤوا البقرة؛ فإن أخذها بركة، وتركها حسرة، ولا تستطيعها البطلة**"(١)؛ والبطلة هم السحرة.

وقد زادت البقرة بمزية تخصيصها بزيادة هذا الأمر بأن كان فيها بركة فوق تلك البركة التي تعم سائر سور القرآن، وأن في تركها حسرة زيادة على الحسرة التي تكون بسبب ترك غيرها من سور القرآن، فترك القرآن عموماً حسرة، وترك البقرة حسرة خاصة فوق تلك الحسرة العامة.

٢- **الشفاعة في الآخرة**، ففي صحيح مسلم أيضاً عن النواس بن سمعان "**يؤتى بالقرآن يوم القيامة وأهله الذين كانوا يعملون به، تقدمهم البقرة وآل عمران** ". وضرب لهما رسول الله ﷺ ثلاثة أمثال ما نسيتهن بعد، قال: " **كأنهما غمامتان أو ظلتان سوداوان بينهما شَرْق، أو كأنهما فِرْقَان من طير صَوَاف يُحَاجَّان عن صاحبهما**"(٢).

٣- **سعة إحاطتها بالأحكام**، وهذا جاء عن السلف كثيراً، وهو ظاهر بأدنى تأمل، **وكان خالد بن معدان يسمي البقرة: فسطاط القرآن، أي: مجمع أحكام القرآن، كحال المدينة التي تجمع الناس ويُقال عنها فسطاط.**

وقد اشتملت هذه السورة على معانٍ عظيمة من توحيد الله والإيمان به، وذكر أقسام الناس

---

(١) ح(٨٠٤).

(٢) ح(٨٠٥).

من مؤمن وكافر ومنافق، وذكر نشأة الخلق وما حصل لآدم عليه السلام، وقصص بني إسرائيل، وذكر كثير من المواعظ والوعد والوعيد والآداب والأمثال، وذكر عدد كثير من الأحكام كالصلاةِ والزكاةِ وأحكام الصدقةِ والصيامِ والحج والعمرةِ والجهادِ والنكاحِ والطلاقِ والإيلاءِ والخلعِ والعددِ والبيعِ والربا والدينِ والرهنِ والأطعمةِ والقصاصِ والوصيةِ والأيمان، فحق لمن حفظ هذه السورة العظيمة أن يحصل له هذا الفضل العظيم.

٤- تضمنها لآيات هي من أعظم آيات القرآن:

أ) فقد ورد فيها آية الكرسي، وهي أعظم آية تنزلت على رسول من لدن نوح إلى محمد ﷺ، فروى مسلم في صحيحه عن أبي بن كعب ﷺ قال: قال رسول الله ﷺ: « **يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟** ». قال: قلت الله ورسوله أعلم. قال «**يا أبا المنذر أتدري أي آية من كتاب الله معك أعظم؟** ». قال: قلت: الله لا إله إلا هو الحي القيوم. قال: فضرب في صدري وقال « **والله ليهنك العلم أبا المنذر**»[(١)].

. روى البخاري تعليقاً عن أبي هريرة ﷺ قال: وكلني رسول الله ﷺ بحفظ زكاة رمضان، فأتاني آت، فجعل يحثو من الطعام، فأخذته، فقلت: لأرفعنك إلى رسول الله ﷺ ō فقص الحديث... فقال: إذا أويت إلى فراشك فاقرأ آية الكرسي لن يزال معك من الله حافظ ولا يقربك شيطان حتى تصبح. فقال النبي ﷺ: "**صدقك وهو كذوب ذاك شيطان**"[(٢)].

فآية الكرسي من أوراد ما قبل النوم، وليست من أوراد الصباح والمساء كما يظن بعضهم، فالحديث الوارد في ذلك ضعيفبيّن الضعف،.

وعن أبي أمامة عن النبي ﷺ قال: "**من قرأ آية الكرسي في دبر كل صلاة مكتوبة لم يمنعه من دخول الجنة إلا أن يموت**". رواه النسائي في عمل اليوم والليلة[(٣)] وصححه الهيثمي وابن حجر وجماعة، وضعفه ابن تيمية[(٤)] ومع هذا ذكر ابن القيم عنه أنه قال: ما تركتها عقيب

---

(١) ح(٨١٠).

(٢) ح(٣٢٧٥).

(٣) ح(١٠٠).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٠٨/٢٢).

كل صلاة[1]. وهذا مطرد مع تأصيله لمسألة العمل بالحديث الضعيف إذا كان له أصل ولم يكن منكراً.

ب) فضل آخر آيتين من البقرة :

روى مسلم في صحيحه عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: بينما جبريل قاعد عند النبي ﷺ سمع نقيضاً من فوقه فرفع رأسه، فقال: **"هذا باب من السماء فتح اليوم لم يفتح قط إلا اليوم فنزل منه ملك"** فقال:" **هذا ملك نزل إلى الأرض لم ينزل قط إلا اليوم"** فسلم وقال: **"أبشر بنورين أوتيتهما لم يؤتهما نبي قبلك فاتحة الكتاب وخواتيم البقرة لن تقرأ بحرف منهما إلا أعطيته"**[2].

وروى البخاري ومسلم عن أبي مسعود الأنصاري ﷺ قال رسول الله ﷺ: **"الآيتان من آخر البقرة من قرأهما في ليلة كفتاه"**[3]، أي: كفتاه من كل شر يخشاه.

هذه الفضائل تبين أن آيات السورة لها خصيصتان، فهي: جامعة للأحكام حافظة للأرواح والأبدان في الدنيا والآخرة ، ولما كان اليهود أكثر الأمم جحداً وإخفاء للأحكام وأكثرها إضراراً وحسداً للناس في الأرواح والأجسام، تكرر ذكرهم في البقرة فاضحةً خبايا أحقادهم، كاشفةً طويتهم وطرائق مكرهم، محذرةً من سلوك طريقهم ببيان مآل أمرهم، شارحة وسيلة الحياط من أذاهم والنجاة من خبثهم وكيدهم.

خامساً : السورة سورة أوائل

وهذا أمر بدهي؛ إذ هي في صدر القرآن في مصحف عثمان وابن مسعود وأبي بن كعب وغالب مصاحف الصحابة ، ولم يتقدم عليها إلا الفاتحة، وهذا الموضع لها جعلها سورة أوائل باعتبار ترتيب المصحف العثماني وغيره ، ولذا كانت أمثالها وأوامرها وقصصها أول ما يقابل قارئ القرآن من أوله، فأول مثل في القرآن هو المثل الناري ﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا فَلَمَّآ أَضَآءَتْ مَا حَوْلَهُۥ ذَهَبَ ٱللَّهُ بِنُورِهِمْ وَتَرَكَهُمْ فِى ظُلُمَٰتٍ لَّا

---

(١) زاد المعاد (١ / ٢٨٥).

(٢) ح(٨٠٦).

(٣) البخاري ح(٤٠٠٨)، مسلم ح(٨٠٧).

﴿يُبْصِرُونَ﴾[١٧].

وأول أمر في القرآن هو بالتوحيد ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُمْ وَٱلَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾[٢١].

وأول نهي في القرآن هو عن الشرك ﴿فَلَا تَجْعَلُوا۟ لِلَّهِ أَندَادًا وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾[٢٢].

وأول تحد في القرآن هو بالقرآن ﴿وَإِن كُنتُمْ فِى رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا۟ بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِۦ وَٱدْعُوا۟ شُهَدَآءَكُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ﴾[٢٣].

وأول بشارة في القرآن هي بالجنة ﴿وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۖ كُلَّمَا﴾[٢٥].

وأول قصة في القرآن هي قصة الاستخلاف ﴿وَإِذْ قَالَ رَبُّكَ لِلْمَلَٰٓئِكَةِ إِنِّى جَاعِلٌ فِى ٱلْأَرْضِ خَلِيفَةً ۖ﴾[٣٠].

وفي هذا الموطن أكتفي بهذه الإشارة، ولا أجد من نفسي قوة على أكثر من هذا مع اليقين أن لكل ابتداء سبباً علمه من علمه وجهله من جهله، فالله أسأل لي ولك من علم كتابه ما ينفعنا ويرفعنا به عن منازل ودركات الجاهلين.

سادساً : أمثال سورة البقرة

البقرة فيها عشرة أمثال، وهذا من فرائدها دون بقية السور، وفهم الأمثال من أصعب علوم القرآن، وهذه الأمثال العشرة:

خمسة منها -وهي الأمثال الأولى- في غرض واحد وهو: موقف الناس من الوحي.

وخمسة منها في المال والنفقة، وهي الآيات: ٢٦١ و ٢٦٤ و٢٦٥ و ٢٦٦ و ٢٧٥.

وتسمى الخمسة الأول منها بـ: المثل الناري والمائي والحجري ومثل البعوضة ومثل الناعق،

- **وهذا تلخيص مختصر عن هذه الأمثال :**

١ـ المثل الناري : هو أول مثل في القرآن، والبدء به قبل المائي ـ وهو المثل الثاني ـ هو الأليق بطبيعة السـورة التي من مطلعها جاء الخطاب قوياً حازماً، وهو الأليق أيضـاً من جهة المعنى، فهذا المثل في وصف رجال دخلوا في الإيمان ثم مع أول بلاء أو شبهة أصابتهم نافقوا، وهذا الصـنف من المنافقين أخطر على المؤمنين ممن لم يزل مرتاباً متشـككاً لم يدخل الإيمان قلبه، خصوصاً في بداية أمر إيمانهم كما هو حال الأنصار زمن تنزل البقرة.

فجاء المثل مذكراً بما في الوحي من وعد ووعيد، مشابهاً في ذلك طبيعة النار التي فيها الإضاءة والإحراق معاً، فمن لم يؤمن بنور الوحي؛ فستحرقه ناره.

﴿مَثَلُهُمْ كَمَثَلِ ٱلَّذِى ٱسْتَوْقَدَ نَارًا﴾ [١٧]، أي: مثل هؤلاء المنافقين الذي آمنوا ثم نافقوا كمثل من أراد أن يوقد نارا لتضيء له.

﴿فلمّا أَضَاءَتْ مَا حَوْلَهُ﴾ حصل له طلبه ودخل في الإيمان حقيقة، ولكن هذا النور كان ضعيفاً لم يستتم إنما أضاء له ما حوله فقط.

قال الإمام مجاهد: "أما إضاءة النار: فإقبالهم إلى المؤمنين وإلى الهدى، وأما ذهاب نورهم: فإقبالهم إلى الكافرين وإلى الضلالة"(١).

قال ابن تيمية: "وهكذا قال غير واحد من السلف في صفة المنافقين الذين ضرب لهم المثل في البقرة أنهم أبصروا ثم عموا، وعرفوا ثم أنكروا وآمنوا ثم كفروا، وكذلك قال قتادة ومجاهد"(٢).

ويدل عليه ختم المثل بقوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ﴾ [١٨]، أي: لا يرجعون إلى ما كانوا عليه من الإيمان، فقد كانوا مؤمنين بُرهة يسيرة ثم نافقوا.

وقوله {ذَهَبَ اللَّهُ بِنُورِهِمْ}، أي: ذهب النور وبقية النار جزاء لهم على كفرهم بالوحي.

وذهل بعض أهل العربية فاستعجم عليه أن يكون الضمير في (بنورهم) جمعاً وهو يعود على مفرد (استوقد) ؟!

والجواب: أن الضمير هنا ليس عائداً على الذي استوقد النار، ولكن عائد على المنافقين

---

(١) تفسير مجاهد(١/١٩٧).

(٢) مجموع الفتاوى(٧/٢٧٤).

وهم جمع[1]، والدليل ما بعده، حيث قال: ﴿صُمٌّ بُكۡمٌ عُمۡىٞ فَهُمۡ لَا يَرۡجِعُونَ﴾ [١٨] وهذا الاختصار من روائع بلاغة القرآن، فالقرآن متى كان الشيء مشاراً إليه في المعنى حذفه لفظاً؛ استغناء بفطنة القارئ.

ومما جاء في السنة في معنى هذا المثل قوله ﷺ: «**إنما مثلي ومثل الناس كمثل رجل استوقد ناراً، فلما أضاءت ما حوله جعل الفراش وهذه الدواب التي تقع في النار يقعن فيها، فجعل ينزعهن ويغلبنه فيقتحمن فيها، فأنا آخذ بحجزكم عن النار، وأنتم تقتحمون فيها**» أخرجه البخاري[2] ومسلم[3].

٢ ـ **المثل المائي**: هو في صنف آخر من المنافقين المتشككين المتحيرين ممن لم يدخل الإيمان في قلوبهم قط، لكنهم يجالسون النبي ﷺ وأصحابه -رضوان الله عليهم- ويسمعون القرآن بوعده ووعيده وحججه ويرون براهين الحق ماثلة أمامهم، ولكنهم يرون أيضاً المحن والمصائب تنزل على المؤمنين صباً، فيقعدهم خوف البلاء عن اتباع برهان السماء.

والتشبيه في هذا المثل هو: بين حال قوم في بيوتهم وآخرين خارجاً منها ضاربين، نزل بهم جميعاً في ليلة ظلماء دامسة صيب كثيف من السماء فيه رعد وبرق شديدين، فمن في بيوتهم يفرحهم المطر وهم آمنون من ضرره ويرجعون بعد ذلك نفعه، وأما من كان منكشفاً يسير في الأرض ليس له ما يستكن به، فيخشى الموت على نفسه غرقاً أو حرقاً أو رعباً، فهذا حال أهل الإيمان وأهل الريب والنفاق.

وهذا شرح مختصر للمثل المائي:

قوله: (أَوْ كَصَيِّبٍ) الصيب: ماء المطر ينزل شديداً متتابعاً والمقصود به: آي القرآن.

(مِنَ السَّمَاءِ) قال: من السماء؛ مبالغة في المواضع التي ينزل منها، فكأن السماء كلها تمطر وليس بمجرد السحاب، ويقابل هذا كثرة الدلائل والبراهين مع تتابعها وتنوعها وقوتها التي تدل على صدق القرآن.

---

(١) ينظر: التحرير والتنوير(٣٠٩/١).

(٢) ح(٦٤٨٣).

(٣) ح(٢٢٨٤).

(فِيهِ ظُلُمَاتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ): الظلمات هي المتشابهات من القرآن، والرعد والبرق هما زواجر القرآن وقوارعه ووعده ووعيده .

﴿يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِيٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ﴾ هذا حالهم عند قوارع القرآن أنهم يخافون ولكن سرعان ما يذهب ذلك عنهم.

﴿يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ﴾ فحقائق القرآن ساطعة مبهرة لكل ذي عينين.

﴿كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ﴾ تحدوهم براهين الحق أن تميل نفوسهم لتتبع نوره.

﴿وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟﴾ لكن سرعان ما يذهب ذلك عنهم، فيعودوا لجحودهم .

﴿وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾، فالله لم يعاقبهم بسبب إعراضهم أن يطمس على أسماعهم وأبصارهم كحال المنافقين الخُلص أو الكافرين العاندين للحق بعد وضوحه، بل ما زال لديهم بعض سمع وبصر يعرفون بهما الحق، وهذا تهديد لهم إن لم يتوبوا ويذعنوا ويستسلموا للحق فالله قادر على طمسها وعلى ما هو أشد من ذلك (إن الله على كل شيء قدير).

أما النوع الثالث من المنافقين وهم من خَلُص للنفاق، ولم يكن لهم سابقة إيمان، ولم يتشكك أو يتردد بل هو متضلع في نفاقه؛ فلم يذكرهم الله هنا في مطلع البقرة لقلتهم حين تنزلها، وإنما كشف سوءاتهم في المشقشقة حين كثروا بعد أن عزّ الدين فخافه أهل الباطل، كما قال تعالى ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۖ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ ۖ نَحْنُ نَعْلَمُهُمْ ۚ﴾[التوبة:١٠١].

٣ ــ مثل البعوضة : ﴿إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْىِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٢٦].

ـ وموضع هذا المثل وعلاقته بالسياق سباقاً ولحاقاً يحتاج إلى بيان:

وأقرب الأقوال فيه ـ والعلم عند الله ـ ما قاله السدي: لما ضرب الله هذين المثلين للمنافقين، قال المنافقون: الله أعلى وأجل من أن يضرب هذه الأمثال؛ فأنزل الله: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلًا ما بعوضة فما فوقها[1].

وكذلك ما جاء عن قتادة، قال: لما ذكر الله تبارك وتعالى العنكبوت والذباب، قال المشركون: ما بال العنكبوت والذباب يذكران؟ فأنزل الله: إن الله لا يستحيي أن يضرب مثلاً ما بعوضة فما فوقها[2] وروي عن الحسن وإسماعيل بن أبي خالد نحو قول السدي وقتادة[3] .

ولا يلزم من كون مثل العنكبوت والذباب في آيتين مكيتين ألا تكون آية البقرة في شأنهما، فلعله إنما أثار ذلك اليهود في المدينة وأخذه عنهم المنافقون، فأذاعوه بين الناس، فرد الله عليهم وعلى من شكك في المثلين أول البقرة في مثل البعوض.

وأكثر ما يثار في هذا المثل قول بعض المعاصرين بأن قوله تعالى: (بعوضة فما فوقها) فيه إعجاز علمي؛ لأنه اكتشف حديثاً حشرة صغيرة تكون فوق رأس البعوض، وسواء ثبت ذلك أو لم يثبت فلا حاجة له، ففي حجج القرآن الواضحة ما يُغني ويشفي عن تكلف مثل هذا البرهان، خصوصاً والسياق ليس في هذا يقيناً، بل هو في ضرب الأمثال لخلقه من خلقه صغر ذلك الخلق أو كبر.

٤ ـ المثل الحجري: سبق أن هذا المثل سيق لتحذير أمة محمد ﷺ في موقفها من الأوامر والنواهي الواردة في هذه القرآن العظيم ألا يسلكوا طريق المغضوب عليهم، فأمة محمد ﷺ إن فهمت أوامر ونواهي (البقرة) فامتثلت نجت، وإن أعرضت لا تدري ماذا تقرأ ولا تستجيب لما تسمع، فالعاقبة هي نفس عاقبة أصحاب البقرة (ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة..) ، ويوضح ذلك الإمام يحي بن أبي طالب عند بيانه لمعنى لطيف قد يخفى على كثيرين، فقال عند قوله تعالى: ﴿وَإِنَّ مِنَ ٱلْحِجَارَةِ لَمَا يَتَفَجَّرُ مِنْهُ ٱلْأَنْهَٰرُ﴾ قال: هو كثرة

---

(١) جامع البيان (٣٩٩/١).

(٢) جامع البيان (٤٢٤/١).

(٣) تفسير ابن أبي حاتم (٦٩/١).

البكاء، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَشَّقَّقُ فَيَخْرُجُ مِنْهُ ٱلْمَآءُ﴾، قال: قليل البكاء، ﴿وَإِنَّ مِنْهَا لَمَا يَهْبِطُ مِنْ خَشْيَةِ ٱللَّهِ﴾، قال: بكاء القلب، من غير دموع العين(١).

٥ ــ مثل الناعق: في قوله تعالى: ﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ كَمَثَلِ ٱلَّذِى يَنْعِقُ بِمَا لَا يَسْمَعُ إِلَّا دُعَآءً وَنِدَآءً ۚ صُمٌّۢ بُكْمٌ عُمْىٌ فَهُمْ لَا يَعْقِلُونَ﴾ [١٧١]، هذا هو آخر الأمثلة المضروبة في بيان موقف الناس من الوحي، فضرب الله مثلًا للذين كفروا بأنهم في قلة فهمهم عن الله وعن رسوله ﷺ ما يُتلى عليهم في كتابه المنزل، وسُوء قبولهم لما يُدعون إليه من توحيد الله وعدم تبصرهم وتفكيرهم فيما يُقال لهم كحال البهيمة من الأنعام التي تسمع صوتَ راعيها إذا نعَق بها ولا تعقلُ ما يقال لها ، قال ابن عباس: كمثل البعير والحمار والشاة، إن قلت لبعضها "كُلْ " لا يعلم ما تقول، غير أنه يسمع صوتك. وكذلك الكافر، إن أمرته بخير أو نهيته عن شر أو وَعظته، لم يعقل ما تقول غير أنه يسمع صوتك(٢).

لكن يُشكل على هذا المعنى قوله تعالى "**كمثل الذي ينعِق..**"، فهل يصح أن يُقال: بأن الرسول ﷺ هو المراد بقوله تعالى "ينعِق" حاشاه صلوات ربي وسلامه عليه، والجواب: بأن المعنى للمنعوق به بينما الكلام خرج على الناعق وليس مراداً، وجاز ذلك لظهور المعنى وعدم التباسه، وأمثلة ذلك في لغة العرب كثيرة كما قال النابغة الجعدي :

كَانَتْ فَرِيضَةُ مَا تَقُولُ، كَمَا... كَانَ الزِّنَاءُ فَرِيضَةَ الرَّجْمِ

والمعنى: كما كان الرجمُ فريضة الزنا، فجعل الزنا فريضة الرجم؛ لوضوح معنى الكلام عند سامعه.وقد ساق ابن جرير وأبو عبيدة شواهد كثيرة على هذا من شعر العرب ونثرهم.

وهناك معنى آخر: بأن المراد نداء المشركين للأصنام، فهم ينعقون ويدعون من لا يسمع، ويشكل عليه قوله في الآية (إلا دعاء ونداء) والأصنام لا تسمع الدعاء والنداء(٣).

والمعنى الأول أشهر وأذكر عند أئمة المفسرين من السلف.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (١/١٤٦-١٤٧).

(٢) جامع البيان (٣٣/٤٥).

(٣) يُنظر: جامع البيان (٣/٤٧).

٦ ـ مثل المنفق في سبيل الله:

﴿مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِي كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّائَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ﴾ [٢٦١]. المثل غاية في الوضوح، ويحسن التنبيه بأن أصل التمثيل في الآية ورد على تضعيف الحبَّة؛ لأنّ تضعيفها يكون من ذاتها لا بشيء يزاد عليها، نبه عليه ابن عاشور(١).

٧ ـ مثل المنّان بالنفقة :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُبْطِلُوا۟ صَدَقَٰتِكُم بِٱلْمَنِّ وَٱلْأَذَىٰ كَٱلَّذِى يُنفِقُ مَالَهُۥ رِئَآءَ ٱلنَّاسِ وَلَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ فَمَثَلُهُۥ كَمَثَلِ صَفْوَانٍ عَلَيْهِ تُرَابٌ فَأَصَابَهُۥ وَابِلٌ فَتَرَكَهُۥ صَلْدًا ۖ لَّا يَقْدِرُونَ عَلَىٰ شَىْءٍ مِّمَّا كَسَبُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾ [٢٦٤].

والصفوان هو الحجر الأملس، والوابل هو المطر الكثير، والصلد هو الحجر الصلب الذي لا شيء عليه من نبات ولا غيره، والمراد:

أن أعمال المنّانين بنفقتهم المؤذين بالتعالي على من أعطوه شيئاً من المال؛ هي بمنزلة الصخرة التي كان عليها تراب، فأصابها مطر كثير فذهب بما عليها من التراب ولم يبق منه شيء .

ووجه الشبه: أن هؤلاء المنانين بنفقتهم يراهُم المسلمون في الظاهر أنّ لهم أعمالاً بسبب ما يراؤونهم به، كما يُرى التراب الذي على الصفوان، فإذا كان يوم القيامة وصاروا إلى الله اضمحلّ ذلك كله؛ لأنه لم يكن من أجل الله.

٨ ـ مثل المنفق المُوقن بثواب الله:

﴿وَمَثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمُ ٱبْتِغَآءَ مَرْضَاتِ ٱللَّهِ وَتَثْبِيتًا مِّنْ أَنفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍۭ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَـَٔاتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِن لَّمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلٌّ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾ [٢٦٥].

ضرب الله في الإنفاق المشروع مثلين: الأول بالمنفق في سبيل الله أنه كحبَّة أنبتت سبع

---

(١) التحرير والتنوير (٤١/٣).

سنابل، وهو مثلٌ قليل التركيب وقد تقدم، والثاني بالمنفق أيضاً لكن زاد فيه وصف (وتثبيتا من أنفسهم)، أي: ينفقونها حال كون نفوسهم متيقنة بثواب الله وأن صدقتهم قد وقعت موقعها الذي يحبه الله؛ ولهذا ـ والله أعلم ـ كان المشبه به في الثاني أعظم من الأول، ففي الأول كان حبة بينما في الثاني جنة.

(جنة): هي المكان ذو الشجر الكثير التي تجن، أي: تستر من كان فيها، وأكثر ما تطلق الجنة في كلام العرب على ذات الشجر المثمر المختلف الأصناف، فأما ما كان مغروساً نخيلاً بحتاً فإنما يسمى حائطاً؛ ولذا لا تجد في كلامهم حائط كرم أو رمان ونحو ذلك، ويطلقون البستان غالباً على ما فيه زرع بين أشجاره.

(بربوة): هي المرتفع من الأرض وشجرها وثمرتها أطيب مما يكون في سهل الأرض.

(وابل): هو المطر الكثير المتتابع.

(ضِعْفَيْنِ): التثنية فيه لمجرد التكرير، والمراد، أي: آتت أكلها مضاعفا على تفاوتها.

(فطل): هو المطر الخفيف يكون كالندى على الأشجار.

وبقدر إخلاص المنفق ويقينه بخلف الله له، يكون ثوابه من الله فإما يكون كالتي أصابها الوابل إن عظم إخلاصه أو كالطل إن قل، وما أجمل تشبيه زيد بن أسلم حين قال: "تلك أرض مصر إن أصابها طل زكت وإن أصابها وابل أضعفت"(1).

٩ـ مثل المرائي بالنفقة :

﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ لَهُۥ فِيهَا مِن كُلِّ ٱلثَّمَرَٰتِ وَأَصَابَهُ ٱلْكِبَرُ وَلَهُۥ ذُرِّيَّةٌ ضُعَفَآءُ فَأَصَابَهَآ إِعْصَارٌ فِيهِ نَارٌ فَٱحْتَرَقَتْ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْءَايَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ﴾ [٢٦٦].

هذا مثل فيه خفاء، وقد ثبت في صحيح البخاري عن ابن عباس، قال: عمر بن الخطاب يوماً لأصحاب النبي ﷺ: "فيمن ترون هذه الآية نزلت؟ ﴿أَيَوَدُّ أَحَدُكُمْ أَن تَكُونَ لَهُۥ جَنَّةٌ مِّن نَّخِيلٍ وَأَعْنَابٍ﴾ [٢٦٦]، قالوا: الله أعلم. فغضب عمر، فقال: قولوا: نعلم

(1) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٢١).

أو لا نعلم، فقال ابن عباس: في نفسي منها شيء يا أمير المؤمنين، فقال عمر: يا ابن أخي قل ولا تحقر نفسك، فقال ابن عباس رضي الله عنهما: ضربت مثلاً بعمل، قال عمر: أي عمل؟ قال ابن عباس: لرجل غني يعمل بطاعة الله، ثم بعث الله له الشيطان فعمل بالمعاصي، حتى أغرق أعماله"(١).

وعن مجاهد قال: "دنيا لا يعمل فيها بطاعة الله، كمثل الذي له جنات تجري من تحتها الأنهار، فمثله بعد موته كمثل هذا حين احترقت جنته وهو كبير لا يغني عنها شيئاً، وولده صغار لا يغنون عنه شيئاً، كذلك المفرط، بعد الموت كل شيء عليه حسرة"(٢)؛ وهذا تفسير صحيح، لكن الآيات كلها في النفقة؛ ولذا فعندي أن ما قاله السدي ألصق بدلالة السياق، قال السدي: "هذا مثل آخر لنفقة الرياء، أنه ينفق ماله يرائي به الناس، فيذهب ماله منه وهو يرائي فلا يأجره الله فيه، فإذا كان يوم القيامة واحتاج إلى نفقته وجدها قد أحرقها الرياء فذهبت، كما أنفق هذا الرجل على جنته حتى إذا بلغت وكثر عياله واحتاج إلى جنته، جاءت ريح فيها سموم فأحرقت جنته فلم يجد منها شيئا"(٣).

١٠ ـ مثل المرابي: في قوله تعالى ﴿ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ﴾[٢٧٥].

المراد به عند قيامه للبعث يوم القيامة، جاء ذلك عن ابن عباس، وقال: "آكل الربا يبعث يوم القيامة مجنوناً يُخنَق". وروي ذلك عن عوف بن مالك وسعيد بن جبير والسدي والربيع بن أنس وقتادة ومقاتل بن حيان وغيرهم كثير، وجاء في قراءة ابن مسعود {... كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس يوم القيامة}(٤).

والجزاء من جنس العمل، فلما كان في الدنيا يخنق ضعفة الناس بجشعه، ويجعلهم يتخبطون كالمجانين بحثاً عن سداد رباه عليهم؛ قام يوم القيامة كذلك.

---

(١) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٢٢-٥٢٣).

(٢) تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٢٢).

(٣) جامع البيان (٤/٦٨١).

(٤)تفسير ابن أبي حاتم (٢/٥٤٤).

سابعاً : قصص سورة البقرة

وهي **تسع قصص** على سبيل الإجمال :

قصة استخلاف آدم عليه السلام في الأرض، وقد عصى الأمر ثم أناب.

قصة موسى عليه السلام مع بني إسرائيل، وفيها عدد من الوقائع، أبرزها قصة البقرة، وقد تعنتوا في طاعة الأمر فقست قلوبهم.

قصة هاروت وماروت: وفيها مقابلة وحي الله بوحي الشيطان وهو السحر.

قصة بناء إبراهيم عليه السلام للبيت العتيق: وفيها التسليم ببناء البيت في مكان قفر.

قصة تحويل القبلة: وعلاقتها بالتسليم للوحي ظاهرة جدّاً.

قصة طالوت وجالوت: لم يكن طالوت أهلًا للملك في ظن يهود، لكن هكذا جاء أمر الوحي صريحاً باسم طالوت .

قصة إبراهيم عليه السلام والنمرود: وهي في الاحتجاج للوحي على من أنكره.

قصة الذي مرّ على قرية: وهي في تصديق خبر الوحي بالبعث.

قصة إبراهيم عليه السلام وإحياء الموتى: وهي فيما يعرض للمؤمن من المثبتات على الوحي ليطمئن قلبه بها.

ثامناً: قواعد الأحكام الكبرى كلها مسطرة في البقرة

أصول أحكام الصلاة، والزكاة، والصيام، والحج، والنكاح، والطلاق، والعدة، والبيوع، والنفقة ، والجهاد، والحدود، والوصايا، والمداينة؛ كلها مما جاء بيانها في آيات البقرة.

وهذه نماذج من ذلك :

- **الأصل في العادات الحل** ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ لَكُم مَّا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

- **وجوب الابتعاد عن الألفاظ المحتملة إلى الألفاظ المحكمة** ﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَقُولُواْ رَٰعِنَا وَقُولُواْ ٱنظُرْنَا﴾ [١٠٤].

- **النسخ بمعناه عند السلف** الذي يشمل التخصيص والتقييد والتفصيل هو من شرع الله

كما قال تعالى : ﴿مَا نَنسَخْ مِنْ ءَايَةٍ أَوْ نُنسِهَا نَأْتِ بِخَيْرٍ مِّنْهَآ أَوْ مِثْلِهَآ﴾[١٠٦].

- **قاعدة في التعامل مع أهل الكتاب** ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ ٱلْيَهُودُ وَلَا ٱلنَّصَٰرَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾[١٢٠].

- **تحريم الحلال كتحليل الحرام** ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ كُلُوا۟ مِمَّا فِى ٱلْأَرْضِ حَلَٰلًا طَيِّبًا وَلَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ إِنَّهُۥ لَكُمْ عَدُوٌّ مُّبِينٌ﴾ [١٦٨]، أي: لا تطيعوه في تحريم الحلال.

- **حكم الحاكم لا يحل الحرام** ﴿وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَٰطِلِ وَتُدْلُوا۟ بِهَآ إِلَى ٱلْحُكَّامِ لِتَأْكُلُوا۟ فَرِيقًا مِّنْ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ بِٱلْإِثْمِ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [١٨٨].

- **الظلم محرم حتى في حق الكافر المقاتل** ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ﴾ [١٩٠].

- **الحرج يرفع التكليف** ﴿لَا تُكَلَّفُ نَفْسٌ إِلَّا وُسْعَهَا ۚ﴾ [٢٣٣].

- **النسيان يرفع الإثم** ﴿رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَآ إِن نَّسِينَآ أَوْ أَخْطَأْنَا ۚ﴾[٢٨٦]. وغيرها كثير جداً.

وقد ذكر الشيخ محمد رشيد رضا في تفسيره تحت عنوان: (**الْأُصُولُ وَالْقَوَاعِدُ الشَّرْعِيَّةُ الْعَامَّةُ فِي سُورَةِ الْبَقَرَةِ**) أكثر من ثلاثين قاعدة عظيمة أبانت عنها البقرة، فانظره – غير مأمور– فإنه مفيد[1] ، ومن استقصاها بلغت معه المائة أو تزيد .

تاسعاً: معقد السورة هو أن الإيمان رتبةً وتربيةً يكون قبل الأحكام

السورة بدأت بالإيمان (الذين يؤمنون...) وختمت بالإيمان (آمن الرسول...)، وبينهما آلاف الأحكام الآمرة والناهية تتخللها آيات التوحيد وأعظمها آية الكرسي؛ لتظهر الدلالة واضحة أن الإيمان يجب أن يكون أولاً وآخراً، وأن الانشغال بالأحكام عن الإيمان خطأ كبير

(١) تفسير المنار (٩٣/١).

وضلال عن هدي هذه السورة العظيمة التي هي رأس سور الأحكام.

ومن خالف ذلك في تربيته لنفسه أو غيره، فقد مهّد لمعصية الأمر وركوب النهي؛ لأن الوحي طرق ووقع على محل فاسد.

وختام السورة أيضاً في التسليم للوحي وأن مآله إلى خير وفي خير، وأن الشر كله في الاعتراض على الوحي المنزل بالآراء البشرية الكاسدة، وهو مما يؤيد مقصد السورة الذي سبقت الإشارة إليه في أول هذا المكتوب، ويوضح ذلك أيضاً ما ثبت في صحيح مسلم عن العلاء بن عبد الرحمن عن أبيه عن أبي هريرة، قال: لما أنزل الله: ﴿وَإِن تُبْدُواْ مَا فِي أَنفُسِكُمْ أَوْ تُخْفُوهُ يُحَاسِبْكُم بِهِ اللَّهُ﴾ [٢٨٤] اشتد ذلك على أصحاب النبي ﷺ، فأتوا رسول الله ﷺ ثم بَرَكُوا على الركب، وقالوا: أي رسول الله! كُلِّفْنَا من العمل ما نُطِيق: الصلاة، والصيام، والجهاد، والصدقة؛ وقد نزلت عليك هذه الآية ولا نطيقها، فقال رسول الله ﷺ: "**أتريدون أن تقولوا كما قال أهل الكتابين من قبلكم: سمعنا وعصينا؟ قولوا: سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير**"، فلما اقترأها القوم وذَلَّتْ بها ألسنتهم، أنزل الله في إثرها: {آمن الرسول بما أنزل إليه من ربه والمؤمنون كل آمن بالله وملآئكته وكتبه ورسله لا نفرق بين أحد من رسله وقالوا سمعنا وأطعنا غفرانك ربنا وإليك المصير} [٢٨٥]، فلما فعلوا ذلك نسخها الله، فأنزل الله: ﴿لَا يُكَلِّفُ اللَّهُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا لَهَا مَا كَسَبَتْ وَعَلَيْهَا مَا اكْتَسَبَتْ رَبَّنَا لَا تُؤَاخِذْنَا إِن نَّسِينَا أَوْ أَخْطَأْنَا﴾[٢٨٦] ، قال: (نعم)، ﴿رَبَّنَا وَلَا تَحْمِلْ عَلَيْنَا إِصْرًا كَمَا حَمَلْتَهُ عَلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِنَا﴾[٢٨٦]، قال: (نعم)،﴿رَبَّنَا وَلَا تُحَمِّلْنَا مَا لَا طَاقَةَ لَنَا بِهِ﴾[٢٨٦]، قال: (نعم)، ﴿وَاعْفُ عَنَّا وَاغْفِرْ لَنَا وَارْحَمْنَا أَنتَ مَوْلَانَا فَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ﴾ [٢٨٦]، قال: (نعم)[1].

فمطلع السورة وختماها في موقف الناس من الوحي ما بين: مصدق ومكذب ومنافق، والعلم عند الله.

---

(١) ح(١٢٥).

والناس في موقفهم من البقرة على ثلاثة أصناف:

صنف قارئ لها، متدبر لمعانيها، عارف بمراد الله من أمثلتها، ممتثل لأوامرها، فهذا أشبه الناس بأصحاب محمد ﷺ.

وصنف قارئ لها عارف بمعناها مخالف لأحكامها، فهذا فيه شبه من اليهود المغضوب عليهم.

وصنف قارئ لها جاهل بمعانيها وأحكامها، ففيه شبه من النصارى الضالين، وهذا الصنف فصلته وأطنبت في بيان وصفه ومآله وعلاج دائه سورةُ آل عمران.

نسأل الله أن يجعلنا جميعاً ممن هداهم إلى صراطه المستقيم وجنبهم طريق المغضوب عليهم والضالين، آمين آمين.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم،،،

كيف نقرأ سورة آل عمران ؟

هذه السورة العظيمة إنما هي تفصيل لكلمة واحدة من أم الكتاب في قوله تعالى "ولا الضالين"، كما سبق أن البقرة تفصيل لقوله تعالى "غير المغضوب عليهم".

وهي ثانية الزهراوين اللتين تحاجين عن صاحبهما الذي كان يعمل بهما في الدنيا.

فعن أبي أمامة قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (اقرؤوا القرآن فإنه شافع لأهله يوم القيامة، اقرؤوا الزهراوين البقرة وآل عمران فإنهما يأتيان يوم القيامة كأنهما غمامتان، أو كأنهما غيايتان، أو كأنهما فرقان من طير صواف يحاجان عن أهلهما يوم القيامة، ثم قال: اقرؤوا البقرة فإن أخذها بركة وتركها حسرة ولا تستطيعها البطلة)[1]

وتسمية السورة بآل عمران نقض لعقيدة النصارى في كون عيسى إلهاً أو ابن إله، فهي تشير إلى أنه بشر معروف العائلة ونسب أمه معروف.

ولفهم هذه السورة العظيمة ألخص أبرز ما ينبغي تعلمه منها:

أولاً: حزبها "موضعها من المصحف العثماني"

هي من السبع الطوال أفضل أحزاب القرآن بعد المفصل، وهي ثانية الحزب بعد البقرة في المصحف العثماني ، وثبت في صحيح مسلم في حديث حذيفة أن النبي ﷺ قرأ في صلاته بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران[2].

ثانياً: متى نزلت وأين ؟ (الموضع الزماني والمكاني)

آل عمران مدنية باتفاق، وجرى أكثر المفسرين على أنها نزلت بعد البقرة في السنة الثانية أو الثالثة كما هو الترتيب المشهور في نزول السور عن جابر بن زيد، ويشكل عليه أن مطلع آل عمران حتى الآية ٨٣ في وفد نجران، جاء ذلك بأسانيد ضعيفة رواها ابن إسحاق في السيرة

---

(١) صحيح مسلم، ح(٨٠٤) (٥٥٣/١).

(٢) مسلم ح(٧٧٢).

وابن جرير وغيرهما، لكن تعدد مخارجها يدل على أن لها أصلاً، وثبت في صحيح البخاري عن حذيفة قال: جاء العاقب والسيد صاحبا نجران إلى رسول الله ﷺ يريدان أن يلاعناه قال: فقال أحدهما لصاحبه لا تفعل.... الحديث[1]، وقوله (يريدان أن يلاعناه) هي المباهلة التي حكاه الله في آل عمران ﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰذِبِينَ﴾[٦١]، واختار ابن كثير[2] وغيره أن صدر السورة نزل في وفد نجران، ووفد نجران إنما جاء في السنة التاسعة سنة الوفود، فكيف يكون مطلع السورة إلى ثلثها في وفد نجران؛ والسورة نزلت في السنة الثانية أو الثالثة للهجرة؟!

وللجواب عن ذلك: إما أن يقال بأن وفد نجران قدم في السنة الثانية وقد مال إليه ابن عاشور[3]، أو بأن صدر السورة نزل في السنة التاسعة، والقول الأول بعيد؛ لأنه ثبت في البخاري في حديث حذيفة السابق أن وفد نجران قالوا للرسول ﷺ بعد أن نكلوا عن المباهلة: (إنا نعطيك ما سألتنا)، أي: من الجزية، والجزية لم تفرض في السنة الثانية اتفاقاً، والقول الثاني أقرب، ويكون المراد من نزول آل عمران بعد البقرة هو نزول آيات معركة أحد وما بعد ذلك، فهذه نزلت في السنة الثالثة بعد معركة أحد مباشرة، ويكون هو أول ما نزل منها، وهذا يؤيد أن آل عمران نزلت بعد الأنفال وليس قبلها، أما صدرها فإنما نزل في السنة التاسعة، والعلم عند الله.

---

(١) ح(٤٣٨٠).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٢/٤٩-٥٠).

(٣) التحرير والتنوير (٣/١٤٤).

ثالثاً: فيمَ نزلت ؟ (مقصودها)

آل عمران هي ـ والعلم عند الله ـ سورة "العلم المحكم الذي لا تأثر فيه الشبهات"، والذي لابد أن يصدقه العمل، أو كما روي في الأثر الضعيف المشهور "عرفت فالزم"[1]، ومعناه صحيح، وسر ذلك أنه لما تتابعت الأوامر والنواهي وتجاوز عددها المئين في البقرة حيث أبانت عن صراط المتقين وشيدت أركان وشروط وفروض ومتممات التقوى؛ لم يكن بعد ذلك إلا بذل الوسع في طلب العلم الحق ثم الامتثال والثبات على هذا الصراط المستقيم؛ ولذا تكرر الأمر فيها بالصبر والدعاء ـ كما سيأتي بيانه بمشيئة الله ـ ما لم يتكرر في سواها من سور القرآن.

وأيضا لفظ (العلم) و(وأولو العلم) و(أولي الألباب) حاضرة في أول السورة وآخرها، وهذه كلمات ثلاث تكررت في السورة كثيراً بلفظها أو بمعناها وهي:

(الصبر) و(العلم) و(الدعاء)، وهي شرط لمن أراد السلامة من وصم (ولا الضالين) التي جاءت آل عمران شارحة لمتنه في أم القرآن.

وقد ذكرت السورة نموذجين: نموذجاً للضالين وهم "وفد نجران"، ونموذجاً للمهتدين وهم "آل عمران "، وبما أن السبب الأول في ضلال النصارى هو الجهل وعدم بذل الوسع في الوصول للعلم الحق ذكرت هنا في مطلع سورة "العلم الحق".

وآل عمران هم: عمران بن ماتان أبو مريم[2]، وآله وهم: زوجه حنة وابنتهما مريم وكذا عيسى بن مريم عليهم الصلاة والتسليم[3]، وهم مضرب مثل في معرفة الحق والثبات عليه، مع قلة بل ندرة السالك وكثرة الصوارف.

فعمران وزوجه كانا من العباد وكان عمران صاحب صلاة بني إسرائيل، وزوجه حنّة كانت من القانتين، وهذا ظاهر من هذا النذر والابتهال العظيم ﴿إِنَّ ٱللَّهَ ٱصْطَفَىٰٓ ءَادَمَ وَنُوحًا وَءَالَ إِبْرَٰهِيمَ وَءَالَ عِمْرَٰنَ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٣٣﴾ ذُرِّيَّةًۢ بَعْضُهَا مِنۢ بَعْضٍ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٤﴾ إِذْ قَالَتِ

---

(١) المعجم الكبير ح(٣٣٦٧).

(٢) ذكره القرطبي ٤/ ٦٣ ونسبه للسهيلي، وثمت أقوال أخرى لا داعي لذكرها فالخطب يسير.

(٣) ينظر التحرير والتنوير (٣ / ٥).

ٱمۡرَأَتُ عِمۡرَٰنَ رَبِّ إِنِّي نَذَرۡتُ لَكَ مَا فِي بَطۡنِي مُحَرَّرٗا فَتَقَبَّلۡ مِنِّيٓۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلۡعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتۡهَا قَالَتۡ رَبِّ إِنِّي وَضَعۡتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعۡلَمُ بِمَا وَضَعَتۡ وَلَيۡسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلۡأُنثَىٰۖ وَإِنِّي سَمَّيۡتُهَا مَرۡيَمَ وَإِنِّيٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيۡطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾ [٣٣-٣٦].

وزكريا عليه السلام كذلك، وتأمل قوله تعالى فيه: ﴿ فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ﴾[٣٩] وقوله: ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ كَثِيرٗا وَسَبِّحۡ بِٱلۡعَشِيِّ وَٱلۡإِبۡكَٰرِ﴾ [٤١] ، وزوج زكريا لم تيأس مع طول الزمن بل علمها بربها، ثبت يقينها بالله، فطلبت من بعلها دعاء ربه مع عُقمِها وهرم زوجها.

ومريم وعيسى ويحيى عليهم السلام أمرهم في العلم ولزوم الأمر لا يخفى.

وأهل الأخبار لا يختلفون أن يحيى عليه السلام قُتل بسبب صدعه بما عنده من العلم وثباته على الأمر، إما كما يقول ابن كثير وغيره أن بعض ملوك ذلك الزمان بدمشق كان يريد أن يتزوج ببعض محارمه، فنهاه يحيى عليه السلام عن ذلك، فبقي في نفس المرأة منه، فلما كان بينها وبين الملك ما يحب منها، استوهبت منه دم يحيى فوهبه لها، فبعثت إليه من قتله، أو لنحو ذلك مما هو في معناه[1].

وقد استهلت السورة بعد طليعتها بالتحذير من الزيغ؛ وهو أمرٌ بضده من العلم النافع والثبات على الحق ﴿هُوَ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَيۡكَ ٱلۡكِتَٰبَ مِنۡهُ ءَايَٰتٞ مُّحۡكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلۡكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٞۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمۡ زَيۡغٞ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنۡهُ ٱبۡتِغَآءَ ٱلۡفِتۡنَةِ وَٱبۡتِغَآءَ تَأۡوِيلِهِۦۖ وَمَا يَعۡلَمُ تَأۡوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِي ٱلۡعِلۡمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ رَبِّنَاۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُوْلُواْ ٱلۡأَلۡبَٰبِ﴾[٧].

وكان أول دعاء فيها ﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغۡ قُلُوبَنَا بَعۡدَ إِذۡ هَدَيۡتَنَا وَهَبۡ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحۡمَةًۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلۡوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوۡمٖ لَّا رَيۡبَ فِيهِۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخۡلِفُ ٱلۡمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾[٧-٩].

---

(١) البداية والنهاية (٢/٤١١).

ولا يغب عن كريم نظرك التأمل في كلمة (لا تزغ)، (لا ريب فيه) في دلالتها على العلم اليقيني والثبات وعدم الشك.

والسورة من أكثر سور القرآن ذكراً للصبر وحثاً عليه خصوصاً ما جاء على زنة اسم الفاعل (**صابر**)، وقد تكرر ذلك فيها (٤) مرات، وليس لذلك نظير في القرآن إلا في سورة البقرة فقط.

وحين ذكر سبحانه صفات المتقين بدأها بالصبر؛ وهو سر الثبات، وثنى بالصدق وهو العلم التام الذي لا يخالطه أدنى شك﴿ٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰدِقِينَ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْمُنفِقِينَ وَٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلْأَسْحَارِ﴾[١٧].

ولما ذكر معركة أحد قال في أثنائها مرغباً بالصبر ﴿وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَٰتَلَ مَعَهُۥ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا۟ لِمَآ أَصَابَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا۟ وَمَا ٱسْتَكَانُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ﴾ [١٤٦].

وختمت السورة بقوله﴿لَتُبْلَوُنَّ فِىٓ أَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ وَلَتَسْمَعُنَّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوٓا۟ أَذًى كَثِيرًا ۚ وَإِن تَصْبِرُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَإِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ﴾ [١٨٦].

وختم ختامها قوله تعالى:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱصْبِرُوا۟ وَصَابِرُوا۟ وَرَابِطُوا۟ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾[٢٠٠].

• مدار قصصها على قصتين عظيمتين :

١- **مناظرة وفد نجران** : قال ابن كثير في تفسيره[1]: "وقد ذكر محمد بن إسحاق وغير واحد أن صدر آل عمران إلى بضع وثمانين آية منها نزلت في وفد نجران.

وقصة آل عمران جاءت تمهيداً لها؛ لأن الموضوع الذي تعالجه أنها تواجه شبهات النصارى، وبخاصة ما يتعلق منها بعيسى عليه السلام، وتدور حول عقيدة التوحيد الخالص كما جاء به الإسلام، وتصحح لهم ما أصاب عقائدهم من انحراف وخلط وتشويه، وتدعوهم إلى الحق

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٢/ ٥٦).

الذي تضمنته كتبهم الصحيحة التي جاء القرآن بصدقها.

واستمر ختام هذه القصة وما يتبعها إلى الآية ١٢٠ عند قوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ بِطَانَةً مِّن دُونِكُمْ لَا يَأْلُونَكُمْ خَبَالًا﴾[١١٨].

فهذه في الشبهات الواردة من الخارج، وهي على أنواع في السورة كما سيأتي.

٢- **معركة أحد** : جاء الحديث عنها في ٦٠ آية من الآية "١٢١ ..١٨٠"؛ والحديث هنا عن دواخل النفوس وما تتسبب فيه من الزيغ عن صراط الحق وعدم الثبات عليه.

● وسائل التثبيت في السورة، هي ثمانية :

١ . العلم الحق بالله من خلال استنطاق الفطرة التي فطر الناس عليها:

بدأت السورة بقوله تعالى: ﴿ٱللَّهُ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْحَىُّ ٱلْقَيُّومُ ﴿٢﴾ نَزَّلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ بِٱلْحَقِّ مُصَدِّقًا لِّمَا بَيْنَ يَدَيْهِ وَأَنزَلَ ٱلتَّوْرَىٰةَ وَٱلْإِنجِيلَ ﴿٣﴾ مِن قَبْلُ هُدًى لِّلنَّاسِ وَأَنزَلَ ٱلْفُرْقَانَ ۗ إِنَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴿٤﴾ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَخْفَىٰ عَلَيْهِ شَىْءٌ فِى ٱلْأَرْضِ وَلَا فِى ٱلسَّمَآءِ ﴿٥﴾ هُوَ ٱلَّذِى يُصَوِّرُكُمْ فِى ٱلْأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَآءُ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴿٦﴾﴾ .

فالحياة لابد لها من مُحيي يحييها، وقائم يقوم على صلاحها، ومن جادل في ذلك، فما عليه إلا أن يصور هو من في الأرحام كما يشاء هو لا كما يشاء الله.

وهذا كله مدرك ببدهي العقل والفطرة.

ومن آيات التفكر قوله: ﴿ قُلِ ٱللَّهُمَّ مَٰلِكَ ٱلْمُلْكِ تُؤْتِى ٱلْمُلْكَ مَن تَشَآءُ وَتَنزِعُ ٱلْمُلْكَ مِمَّن تَشَآءُ وَتُعِزُّ مَن تَشَآءُ وَتُذِلُّ مَن تَشَآءُ ۖ بِيَدِكَ ٱلْخَيْرُ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٦﴾ تُولِجُ ٱلَّيْلَ فِى ٱلنَّهَارِ وَتُولِجُ ٱلنَّهَارَ فِى ٱلَّيْلِ ۖ وَتُخْرِجُ ٱلْحَىَّ مِنَ ٱلْمَيِّتِ وَتُخْرِجُ ٱلْمَيِّتَ مِنَ ٱلْحَىِّ ۖ وَتَرْزُقُ مَن تَشَآءُ بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿٢٧﴾﴾ .

ومن آيات التفكر: ﴿أَفَغَيْرَ دِينِ ٱللَّهِ يَبْغُونَ وَلَهُۥٓ أَسْلَمَ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا وَإِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾[٨٣]، فالكون له سنن ونواميس من خرج عنها هلك كائناً من كان إلا بإذن يسير ثم يعود الأمر إلى سننه، فمن وضع هذه السنن التي خضع لها كل جبار في السماء والأرض؟!

وهذا موصول للمعرفة الكاملة التامة اليقينية بالله، فيكون العبد الموصوف بهذه الصفة، بلغ منزلة الشهود وكأنه عاين الحق بجوارحه: ﴿ شَهِدَ ٱللَّهُ أَنَّهُۥ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةُ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْعِلْمِ قَآئِمًۢا بِٱلْقِسْطِ ۚ لَآ إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ ﴾ [١٨]؛ ولذا بدأت السورة وختمت بآيات التفكر.

٢ . الدعاء، وهي أكثر سورة في القرآن تكرر فيها الدعاء:

تكرر الدعاء في آل عمران في أكثر من عشرين آية؛ لأنه من أعظم وسائل الثبات، ولذا افتتحت السورة بالدعاء واختتمت به وبين هذا وذاك دعاء كثير وفيها آية المباهلة وهي دعاء: ففي أولها﴿ رَبَّنَا لَا تُزِغْ قُلُوبَنَا بَعْدَ إِذْ هَدَيْتَنَا وَهَبْ لَنَا مِن لَّدُنكَ رَحْمَةً ۚ إِنَّكَ أَنتَ ٱلْوَهَّابُ ﴿٨﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ جَامِعُ ٱلنَّاسِ لِيَوْمٍ لَّا رَيْبَ فِيهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿٩﴾﴾[٨-٩]، وفي وسطها:﴿ إِذْ قَالَتِ ٱمْرَأَتُ عِمْرَٰنَ رَبِّ إِنِّى نَذَرْتُ لَكَ مَا فِى بَطْنِى مُحَرَّرًا فَتَقَبَّلْ مِنِّىٓ ۖ إِنَّكَ أَنتَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ ﴿٣٥﴾ فَلَمَّا وَضَعَتْهَا قَالَتْ رَبِّ إِنِّى وَضَعْتُهَآ أُنثَىٰ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا وَضَعَتْ وَلَيْسَ ٱلذَّكَرُ كَٱلْأُنثَىٰ ۖ وَإِنِّى سَمَّيْتُهَا مَرْيَمَ وَإِنِّىٓ أُعِيذُهَا بِكَ وَذُرِّيَّتَهَا مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴿٣٦﴾﴾[٣٥-٣٦]، وفي ختامها: ﴿ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ رَبَّنَآ إِنَّكَ مَن تُدْخِلِ ٱلنَّارَ فَقَدْ أَخْزَيْتَهُۥ ۖ وَمَا لِلظَّٰلِمِينَ مِنْ أَنصَارٍ ﴿١٩٢﴾ رَّبَّنَآ إِنَّنَا سَمِعْنَا مُنَادِيًا يُنَادِى لِلْإِيمَٰنِ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِرَبِّكُمْ فَـَٔامَنَّا ۚ رَبَّنَا فَٱغْفِرْ لَنَا ذُنُوبَنَا وَكَفِّرْ عَنَّا سَيِّـَٔاتِنَا وَتَوَفَّنَا مَعَ ٱلْأَبْرَارِ ﴿١٩٣﴾ رَبَّنَا وَءَاتِنَا مَا وَعَدتَّنَا عَلَىٰ رُسُلِكَ وَلَا تُخْزِنَا يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ إِنَّكَ لَا تُخْلِفُ ٱلْمِيعَادَ ﴿١٩٤﴾﴾[١٩١-١٩٤].

٣ . الحجج والبراهين العقلية :

فقال سبحانه مجيباً عمن استنكر ولادة عيسى عليه السلام من غير أب ﴿ إِنَّ مَثَلَ عِيسَىٰ عِندَ ٱللَّهِ كَمَثَلِ ءَادَمَ ۖ خَلَقَهُۥ مِن تُرَابٍ ثُمَّ قَالَ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴾ [٥٩]، فخلق آدم أعجب من خلق عيسى عليهما السلام، فمن أقر بالأول فكيف ينكر الثاني ؟!

وقال مبيناً خطأ محضاً من بني إسرائيل: ﴿ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴾[٦٥]، والتوراة والإنجيل لم يأت فيهما

ذكر شريعة ولا صحف إبراهيم كما هو معلوم عند الجميع، والبون الزمني بينهما شاسع جدا، فكيف تحاجون في شريعة إبراهيم وأن القرآن قد خالفها كما زعمتم وليس عندكم علم بها؟

وفي طريقة التفكير العقلية المنطقية: أنه إذا كان هناك قولان ظاهرهما التعارض ونحن نوقن أن المتكلم بهذا الكلام لا يمكن أن يتناقض، فالعقل كل العقل أن نرد الملتبس المتشابه إلى المحكم والفصل من القول ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَنزَلَ عَلَيْكَ ٱلْكِتَٰبَ مِنْهُ ءَايَٰتٌ مُّحْكَمَٰتٌ هُنَّ أُمُّ ٱلْكِتَٰبِ وَأُخَرُ مُتَشَٰبِهَٰتٌ ۖ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ ۗ وَمَا يَعْلَمُ تَأْوِيلَهُۥٓ إِلَّا ٱللَّهُ ۗ وَٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ يَقُولُونَ ءَامَنَّا بِهِۦ كُلٌّ مِّنْ عِندِ رَبِّنَا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ﴾[٧].

ومن أساليب الجدال الظاهرة في السورة البدء بالمشترك بينك وبين المخالف تقربيا له وتحببا إليه؛ لعله يستجيب:

- ﴿قُلْ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَمَآ أُنزِلَ عَلَىٰٓ إِبْرَٰهِيمَ وَإِسْمَٰعِيلَ وَإِسْحَٰقَ وَيَعْقُوبَ وَٱلْأَسْبَاطِ وَمَآ أُوتِىَ مُوسَىٰ وَعِيسَىٰ وَٱلنَّبِيُّونَ مِن رَّبِّهِمْ لَا نُفَرِّقُ بَيْنَ أَحَدٍ مِّنْهُمْ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٨٤﴾﴾ [٨٤].
- ﴿قُلْ يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ كَلِمَةٍ سَوَآءٍۭ بَيْنَنَا وَبَيْنَكُمْ أَلَّا نَعْبُدَ إِلَّا ٱللَّهَ وَلَا نُشْرِكَ بِهِۦ شَيْـًٔا وَلَا يَتَّخِذَ بَعْضُنَا بَعْضًا أَرْبَابًا مِّن دُونِ ٱللَّهِ ۚ فَإِن تَوَلَّوْا۟ فَقُولُوا۟ ٱشْهَدُوا۟ بِأَنَّا مُسْلِمُونَ﴾ [٦٤].

٤ . القوة في الجهر بالحق والاعتزاز به والتحدي في ذلك إلى أقصى درجات التحدي :

﴿فَمَنْ حَآجَّكَ فِيهِ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَكَ مِنَ ٱلْعِلْمِ فَقُلْ تَعَالَوْا۟ نَدْعُ أَبْنَآءَنَا وَأَبْنَآءَكُمْ وَنِسَآءَنَا وَنِسَآءَكُمْ وَأَنفُسَنَا وَأَنفُسَكُمْ ثُمَّ نَبْتَهِلْ فَنَجْعَل لَّعْنَتَ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَٰذِبِينَ﴾[٦١].

وتأمل قوة الخطاب ﴿قُل لِّلَّذِينَ كَفَرُوا۟ سَتُغْلَبُونَ وَتُحْشَرُونَ إِلَىٰ جَهَنَّمَ ۚ وَبِئْسَ ٱلْمِهَادُ﴾[١٢].

٥ . الوضوح والشفافية مع الأتباع دون الوعود الكاذبة أو التزويق الخادع:

السورة أبانت أن طريق الله فيه بلاء ومصائب ونكبات، ولم ترض ما يفعله بعض الدعاة من فرش طريق الدعوة أمام المدعوين بالأماني الحالمة ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَنْ تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَعْلَمِ اللَّهُ الَّذِينَ جَاهَدُوا مِنْكُمْ وَيَعْلَمَ الصَّابِرِينَ (١٤٢) وَلَقَدْ كُنْتُمْ تَمَنَّوْنَ الْمَوْتَ مِنْ قَبْلِ أَنْ تَلْقَوْهُ فَقَدْ رَأَيْتُمُوهُ وَأَنْتُمْ تَنْظُرُونَ (١٤٣) وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِنْ قَبْلِهِ الرُّسُلُ أَفَإِنْ مَاتَ أَوْ قُتِلَ انْقَلَبْتُمْ عَلَى أَعْقَابِكُمْ وَمَنْ يَنْقَلِبْ عَلَى عَقِبَيْهِ فَلَنْ يَضُرَّ اللَّهَ شَيْئًا وَسَيَجْزِي اللَّهُ الشَّاكِرِينَ (١٤٤) وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَنْ تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَابًا مُؤَجَّلًا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الدُّنْيَا نُؤْتِهِ مِنْهَا وَمَنْ يُرِدْ ثَوَابَ الْآخِرَةِ نُؤْتِهِ مِنْهَا وَسَنَجْزِي الشَّاكِرِينَ (١٤٥) وَكَأَيِّنْ مِنْ نَبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الصَّابِرِينَ﴾ [١٤٢-١٤٦]. وحين يقع الخطأ، تكون المصارحة ﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلۡتُمۡ وَتَنَٰزَعۡتُمۡ فِي ٱلۡأَمۡرِ وَعَصَيۡتُم مِّنۢ بَعۡدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنۡيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلۡأٓخِرَةَۚ﴾ [١٥٢]، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوۡاْ مِنكُمۡ يَوۡمَ ٱلۡتَقَى ٱلۡجَمۡعَانِ إِنَّمَا ٱسۡتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ بِبَعۡضِ مَا كَسَبُواْۖ وَلَقَدۡ﴾ [١٥٥]،﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتۡكُم مُّصِيبَةٞ قَدۡ أَصَبۡتُم مِّثۡلَيۡهَا قُلۡتُمۡ أَنَّىٰ هَٰذَاۖ قُلۡ هُوَ مِنۡ عِندِ أَنفُسِكُمۡۗ﴾[١٦٥] .

٦. ذكر قصص الثابتين والناكثين وجزاء الفريقين:

مضت الإشارة إلى قصة آل عمران وقصة نبينا عليهم أفضل الصلاة والسلام مع وفد نجران، وكذا قصة معركة أحد.

٧ . الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

﴿وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ﴾[١٠٤].

8 . كثرة العبادة والمداومة عليها وبالأخص منها الصلاة :

﴿فَنَادَتۡهُ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ وَهُوَ قَآئِمٞ يُصَلِّي فِي ٱلۡمِحۡرَابِ أَنَّ﴾[٣٩]،﴿وَإِذۡ قَالَتِ ٱلۡمَلَٰٓئِكَةُ يَٰمَرۡيَمُ إِنَّ ٱللَّهَ ٱصۡطَفَىٰكِ وَطَهَّرَكِ وَٱصۡطَفَىٰكِ عَلَىٰ نِسَآءِ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٤٢﴾ يَٰمَرۡيَمُ ٱقۡنُتِي لِرَبِّكِ وَٱسۡجُدِي وَٱرۡكَعِي مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ ﴿٤٣﴾﴾[٤٢-٤٣].

وفي صحيح مسلم عن معقل بن يسار قال: قال رسول الله ﷺ«**العبادة في الهرج كهجرة**

إلي»[1] والهرج: زمن الفتن واختلاط الأمور بسبب كثرة الشبهات[2].

• أسباب الجهل والزيغ التي حذرت منها السورة، وهي خمسة:

1. الاستجابة للشبهات باتباع المتشابه وترك المحكم:

هذا هو صدر هذه السورة العظيمة في قوله تعالى:

إن أعظم أسباب ضلال العالمين بعد الجحود والعناد هو اتباع المتشابه وترك المحكم كما قال تعالى: ﴿فَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِمْ زَيْغٌ فَيَتَّبِعُونَ مَا تَشَٰبَهَ مِنْهُ ٱبْتِغَآءَ ٱلْفِتْنَةِ وَٱبْتِغَآءَ تَأْوِيلِهِۦ﴾[٧]، فالنصارى استدلوا بولادة عيسى عليه السلام من غير أب على أنه ابن لله، وهذا يرده صريح ومحكم العقل إذ لو كان كذلك لكان لكل إله إرادة خاصة به ولا بد، فإن اختلفت هذه الإرادات، كان النافذ منها واحدا قطعا، فمن نفذت إرادته، فهو الإله والثاني خاضع له.

وقد ضربت لذلك مثلاً في حجاب المرأة المسلمة وما هو المحكم منه والمتشابه في كتابي "أسوار العفاف قبس من النور" فانظره غير مأمور.

ومن كان مريداً للحق صدقاً، فعليه إن اختلف أهل العلم والتبست عليه المسالك بقول النبي ﷺ "**استفت قلبك**"[3]، بشرط إرادة الحق ونزع الهوى من القلب.

2. الانغماس في الشهوات :

فهي من أكثر أسباب ضعف الإنسان وزيغه وعدم ثبوت قدمه إذا غلبت عليه؛ ولذا صدرت آل عمران بقوله تعالى: ﴿زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ ۗ ذَٰلِكَ مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَٱللَّهُ عِندَهُۥ حُسْنُ ٱلْمَـَٔابِ ﴿١٤﴾ قُلْ أَؤُنَبِّئُكُم بِخَيْرٍ مِّن ذَٰلِكُمْ ۚ لِلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ عِندَ رَبِّهِمْ جَنَّٰتٌ

---

(١) ح(٢٩٤٨).

(٢) ينظر: النهاية في غريب الحديث والأثر (٥/٢٥٧).

(٣) أحمد ح(١٨٠٠٦).

تَجْرِي مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا وَأَزْوَٰجٌ مُّطَهَّرَةٌ وَرِضْوَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِٱلْعِبَادِ ﴿١٥﴾﴾[١٤-١٥].

3. المعاصي خصوصاً الكبائر منها :

وهي تخون صاحبها أعظم ما يكون حاجة إلى من يثبته كما جرى في غزوة أحد ﴿وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ﴾ [١٥٢]، ﴿أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ﴾[١٦٥].

وبالأخص الموبقات التي تثير العداوات بين الناس بسبب الظلم من الغني للفقير كالربا ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَأْكُلُوا۟ ٱلرِّبَوٰٓا۟ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾ وَٱتَّقُوا۟ ٱلنَّارَ ٱلَّتِىٓ أُعِدَّتْ لِلْكَٰفِرِينَ ﴿١٣١﴾﴾[١٣٠-١٣١].

فالربا بما فيه من ظلم من أعظم أسباب الخذلان والزيغ.

4. كثرة الاختلاف وعدم طاعة أهل الأمر:

﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنْتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُمْ بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنْتُمْ عَلَى شَفَا حُفْرَةٍ مِنَ النَّارِ فَأَنْقَذَكُمْ مِنْهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ (١٠٣) وَلْتَكُنْ مِنْكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى الْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنْكَرِ وَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ (١٠٤) وَلَا تَكُونُوا كَالَّذِينَ تَفَرَّقُوا وَاخْتَلَفُوا مِنْ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْبَيِّنَاتُ وَأُولَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴾[١٠٣-١٠٥].

فالتفرق والاختلاف يصير الناس أعداء لبعضهم فيحصل من ذلك الفساد العريض الذي توعد الله أهله في هذه الآية بالعذاب العظيم.

5. التعلق بالأشخاص وربط التمسك بالحق بوجودهم:

﴿وَمَا مُحَمَّدٌ إِلَّا رَسُولٌ قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِهِ ٱلرُّسُلُ ۚ أَفَإِي۟ن مَّاتَ أَوْ قُتِلَ ٱنقَلَبْتُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَٰبِكُمْ ۚ وَمَن يَنقَلِبْ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ فَلَن يَضُرَّ ٱللَّهَ شَيْـًٔا ۗ وَسَيَجْزِى ٱللَّهُ ٱلشَّٰكِرِينَ﴾ [١٤٤].

- **وكان ختام هذه السورة العظيمة أن أمرت بأمرين:**

1 . التفكر، وهو أعظم طريق للعلم بالله سبحانه:

أخرج ابن حبان في صحيحه[1] عن ابن عُمَيْرٍ قال لعائشة رضي الله عنها: أخبرينا بأعجب شيء رأيته من رسول الله ﷺ قال: فسكتت ثم قالت: لما كان ليلة من الليالي قال: "**يا عائشة ذريني أتعبد الليلة لربي**" قلت: والله إني لأحب قربك وأحب ما سرك قالت: فقام فتطهر ثم قام يصلي قالت: فلم يزل يبكي حتى بل حجره قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل لحيته قالت: ثم بكى فلم يزل يبكي حتى بل الأرض فجاء بلال يؤذنه بالصلاة فلما رآه يبكي قال: يا رسول الله لم تبكي وقد غفر الله لك ما تقدم وما تأخر؟ قال:" **لقد نزلت علي الليلة آية ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها** ﴿إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُوْلِي ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾﴾ الآية كلها".

2 . الصبر الذي هو رأس أسباب الثبات:

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱصْبِرُواْ وَصَابِرُواْ وَرَابِطُواْ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ﴾ [٢٠٠] ، فتدرجت الآية في أوامرها من الأدنى للأعلى، ففعل الأمر(اصبروا) يدل على وجوب الصبر، لكن فعل الأمر (صابروا) أرفع منه؛ لأنه يتضمن مصابرة الغير ممن يريد تنحيتك عن الطريق، والرباط أرفع منهما؛ لأنه أمر باليقظة للعدو حتى قبل مجيئه، والتقوى أرفع منها جمعا إذ هي ثمرتها المقصودة منها.

فالتقوى هي الرابط بين أول البقرة وآخر آل عمران.

جعلنا الله جميعاً من المتقين، وجعل آل عمران حجة لنا لا علينا، وشفعها فينا وفي والدينا وأهلنا وأحبابنا أجمعين ..

---

(١) ح(٦٢٠).

كيف نقرأ سورة النِّساء ؟

النساء سورة طويلة عظيمة، وهي سورة "العدل مع الضعفاء"، وتسمى سورة "النساء الطولى" في مقابلة سورة "النساء القصرى" الطلاق[1]. وقد جاءت تؤكد الحقيقة التي قررها من أرسل رحمة للعالمين ﷺ حين قال: "**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم؟** "رواه البخاري[2]، وفي لفظ عند النسائي: "**إنما تنصر هذه الأمة بضعفائها: بدعوتهم وصلاتهم وإخلاصهم** "[3]، وروى عبد الرزاق من طريق مكحول في قصة سعد هذه زيادة مع إرسالها لكنها مفسرة، وفيها: أن سعد بن أبي وقاص قال: " يا رسول الله، أرأيت رجلاً يكون حامية القوم ويدفع عن أصحابه أيكون نصيبه كنصيب غيره؟" فقال النبي ﷺ :"**ثكلتك أمك يا ابن أم سعد، وهل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم**"[4].

ولفهم هذه السورة العظيمة ألخص أبرز ما ينبغي تعلمه منها :

أولاً : حزبها "موضعها من المصحف العثماني"

هي ثالثة السبع الطوال بعد الزهراوين، وكانت قرينة البقرة يقرأهما النبي ﷺ في صلاته فيبدأ بالبقرة ثم النساء ثم آل عمران، ففي صحيح مسلم عن حذيفة ﷺ قال: " صليت مع النبي صلى الله عليه وآله وسلم ذات ليلة فافتتح البقرة، فقلت: يركع عند المائة، ثم مضى، فقلت: يصلي بها في ركعة فمضى، فقلت: يركع بها فمضى، ثم افتتح النساء فقرأها، ثم افتتح آل عمران فقرأها مترسلاً إذا مرّ بآية فيها تسبيح سبح، وإذا مر بسؤال سأل، وإذا مر بتعوذ تعوذ..."[5].

---

(١) ينظر كتاب التعريف بسور القرآن الكريم في الكلام عن النساء ، ويقول ابن عاشور في التحرير والتنوير – (٤ / ٥): سميت هذه السورة في كلام السلف النساء؛ ففي صحيح البخاري عن عائشة قالت: ما نزلت البقرة والنساء إلا وأنا عنده. وكذلك سميت في المصاحف وفي كتب السنة وكتب التفسير، ولا يعرف لها اسم آخر، لكن يؤخذ مما روي في صحيح البخاري عن ابن مسعود من قوله: نزلت النساء القصرى يعني الطلاق ، أنها تُسمى النساء الطولى، ولم أقف عيه صريحاً. ووقع كتاب بصائر ذوي خبرة التمييز للفيروز أبادي أن هذه السورة تسمى النساء الكبرى، واسم الطلاق النساء الصغرى. ولم أره لغيره" .

(٢) ح(٢٨٩٦).

(٣) ح(٣١٧٨).

(٤) ح(٩٦٩١).

(٥) ج١ – ص٥٣٦.

ثانياً : متى نزلت وأين؟ (موضعها الزماني والمكاني)

هي مدنية عند جمهور المفسرين، ونزلت بعد السنة الثانية للهجرة حين تكوّن مجتمع مسلم في المدينة، فنزلت أوائل العهد المدني مع تكوين الدولة؛ لأن مجتمعاً لا ينتصر للضعيف لن ينتصر على أعدائه.

ثالثاً : فيمَ نزلت؟ (مقصودها)

كلا السورتين ـ أي: البقرة والنساء ـ يغلب على آياتها الأحكام خلافاً لآل عمران، ومقصود النساء يُستدل عليه من اسمها ومطلها وختامها وما بينهما، فهي في "وجوب العدل مع الضعفاء"، وأضعف الضعفاء هي المرأة صغيرة وشابة وعجوزاً، فسميت السورة بهذا الاسم؛ تذكيراً بحقهن ووعيداً لمن ظلمهن، وعن أبي هريره ﷺ عن النبي ﷺ قال: "**اللهم إني أحرج حق الضعيفين: اليتيم والمرأة**" رواه أحمد[1] وابن [2]، والذكر اليتيم سرعان ما يزول ضعفه ببلوغه، أما الأنثى فضعفها ملازم لها، لا تستغني عمن يدفع عنها ويحفظها ويحفظ حقوقها؛ ولذا لم يأمر الله عز وجل بالقسط (العدل) في شيء من القرآن كما أمر به في سورتي النساء والمائدة.

وبعض آياتها قد يحتاج ربطها بهذا المعنى إلى تكلّف، وقد نهينا عنه كما في البخاري عن عمر ﷺ[3]، لكن معاقدها تدور عليه.

فمطلعها قوله تعالى :

﴿وَآتُوا الْيَتَامَى أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَتَبَدَّلُوا الْخَبِيثَ بِالطَّيِّبِ وَلَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَهُمْ إِلَى أَمْوَالِكُمْ إِنَّهُ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا (٢) وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَى فَانْكِحُوا مَا طَابَ لَكُمْ مِنَ النِّسَاءِ مَثْنَى وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ذَلِكَ أَدْنَى أَلَّا تَعُولُوا (٣) وَآتُوا النِّسَاءَ صَدُقَاتِهِنَّ نِحْلَةً فَإِنْ طِبْنَ لَكُمْ عَنْ شَيْءٍ مِنْهُ نَفْسًا فَكُلُوهُ هَنِيئًا مَرِيئًا (٤) وَلَا تُؤْتُوا السُّفَهَاءَ أَمْوَالَكُمُ الَّتِي جَعَلَ اللَّهُ لَكُمْ قِيَامًا وَارْزُقُوهُمْ فِيهَا وَاكْسُوهُمْ وَقُولُوا لَهُمْ قَوْلًا مَعْرُوفًا (٥) وَابْتَلُوا الْيَتَامَى حَتَّى إِذَا بَلَغُوا النِّكَاحَ فَإِنْ آنَسْتُمْ مِنْهُمْ رُشْدًا فَادْفَعُوا إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ وَلَا تَأْكُلُوهَا إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَنْ يَكْبَرُوا وَمَنْ كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ وَمَنْ كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ وَكَفَى بِاللَّهِ حَسِيبًا﴾ [٢-٦].

---

(١) ح(٩٦٦٦).

(٢) ح(٣٦٧٨).

(٣) ح(٧٢٩٣).

وفي وسطها :

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا يَحِلُّ لَكُمۡ أَن تَرِثُواْ ٱلنِّسَآءَ كَرۡهٗاۖ وَلَا تَعۡضُلُوهُنَّ﴾ [١٩] ،﴿يُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمۡۚ وَخُلِقَ ٱلۡإِنسَٰنُ ضَعِيفٗا﴾ [٢٨] ،﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَكُم بَيۡنَكُم بِٱلۡبَٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَٰرَةً عَن تَرَاضٖ مِّنكُمۡۚ﴾ [٢٩] ،﴿وَلِكُلّٖ جَعَلۡنَا مَوَٰلِيَ مِمَّا تَرَكَ ٱلۡوَٰلِدَانِ وَٱلۡأَقۡرَبُونَۚ وَٱلَّذِينَ عَقَدَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡ فَـَٔاتُوهُمۡ نَصِيبَهُمۡۚ﴾ [٣٣] ،﴿وَإِن كُنتُم مَّرۡضَىٰٓ أَوۡ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوۡ جَآءَ أَحَدٞ مِّنكُم مِّنَ ٱلۡغَآئِطِ أَوۡ لَٰمَسۡتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمۡ تَجِدُواْ مَآءٗ فَتَيَمَّمُواْ﴾ [٤٣] .

حتى الجهاد فيها من أجل الضعفاء:

﴿وَمَا لَكُمۡ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخۡرِجۡنَا مِنۡ هَٰذِهِ ٱلۡقَرۡيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهۡلُهَا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيّٗا وَٱجۡعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾[٧٥] . ﴿إِلَّا ٱلۡمُسۡتَضۡعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلۡوِلۡدَٰنِ لَا يَسۡتَطِيعُونَ حِيلَةٗ وَلَا يَهۡتَدُونَ سَبِيلٗا﴾[٩٨] .

وفي نصفها الأخير النهي عن محاباة القريب الحبيب في الحقوق :

﴿وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ﴾[١٢٩]﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ كُونُواْ قَوَّٰمِينَ بِٱلۡقِسۡطِ شُهَدَآءَ لِلَّهِ وَلَوۡ عَلَىٰٓ أَنفُسِكُمۡ أَوِ ٱلۡوَٰلِدَيۡنِ وَٱلۡأَقۡرَبِينَۚ إِن يَكُنۡ غَنِيًّا أَوۡ فَقِيرٗا فَٱللَّهُ أَوۡلَىٰ بِهِمَاۖ فَلَا تَتَّبِعُواْ ٱلۡهَوَىٰٓ أَن تَعۡدِلُواْۚ وَإِن تَلۡوُۥٓاْ أَوۡ تُعۡرِضُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا﴾[١٣٥] .

وخُتمت" النساء":

بآية الكلالة ﴿يَسۡتَفۡتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفۡتِيكُمۡ فِي ٱلۡكَلَٰلَةِ﴾[١٧٦].

والكلالة من لا ولد له ولا والد، وهذا نوعُ ضعفٍ ظاهر في وارث المال .

رابعا : أصناف الضعفاء فيها

ذكرت السورة أصناف هؤلاء الضعفاء حتى بلغوا (**عشرين**) صنفاً، وهم :

١) المرأة ، وقد سميت السورة كاملة باسمها (النساء)، وليس لها اسم سواه، واستفتحت بذكر الزوجة (وخلق منها زوجها)، وفي الآية الثالثة قال تعالى: ﴿وَءَاتُواْ ٱلنِّسَآءَ صَدُقَٰتِهِنَّ نِحۡلَةٗ﴾[٤] ، وقال: ﴿وَإِنِ ٱمۡرَأَةٌ خَافَتۡ مِنۢ بَعۡلِهَا نُشُوزًا أَوۡ إِعۡرَاضٗا فَلَا جُنَاحَ عَلَيۡهِمَآ أَن يُصۡلِحَا بَيۡنَهُمَا صُلۡحٗاۚ وَٱلصُّلۡحُ خَيۡرٞۗ وَأُحۡضِرَتِ ٱلۡأَنفُسُ ٱلشُّحَّۚ وَإِن تُحۡسِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعۡمَلُونَ خَبِيرٗا ﴿١٢٨﴾ وَلَن تَسۡتَطِيعُوٓاْ أَن تَعۡدِلُواْ بَيۡنَ ٱلنِّسَآءِ وَلَوۡ حَرَصۡتُمۡۖ فَلَا تَمِيلُواْ كُلَّ ٱلۡمَيۡلِ فَتَذَرُوهَا كَٱلۡمُعَلَّقَةِۚ وَإِن تُصۡلِحُواْ وَتَتَّقُواْ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ غَفُورٗا رَّحِيمٗا ﴿١٢٩﴾ وَإِن يَتَفَرَّقَا يُغۡنِ ٱللَّهُ كُلّٗا مِّن سَعَتِهِۦۚ وَكَانَ ٱللَّهُ وَٰسِعًا حَكِيمٗا ﴿١٣٠﴾﴾[١٢٨-١٣٠].

٢) اليتيمة واليتيم ، كما قال تعالى:﴿وَءَاتُواْ ٱلۡيَتَٰمَىٰٓ أَمۡوَٰلَهُمۡۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلۡخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِۖ وَلَا تَأۡكُلُوٓاْ أَمۡوَٰلَهُمۡ إِلَىٰٓ أَمۡوَٰلِكُمۡۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبٗا كَبِيرٗا ﴿٢﴾ وَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تُقۡسِطُواْ فِي ٱلۡيَتَٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثۡنَىٰ وَثُلَٰثَ وَرُبَٰعَۖ فَإِنۡ خِفۡتُمۡ أَلَّا تَعۡدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوۡ مَا مَلَكَتۡ أَيۡمَٰنُكُمۡۚ ذَٰلِكَ أَدۡنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾﴾[٢-٣].

٣) السّفيه، وهو الذي لا يحسن التصرف في المال وقد يُغلب في التجارة ﴿وَلَا تُؤۡتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمۡوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمۡ قِيَٰمٗا وَٱرۡزُقُوهُمۡ فِيهَا وَٱكۡسُوهُمۡ وَقُولُواْ لَهُمۡ قَوۡلٗا مَّعۡرُوفٗا﴾[٥].

وقال: ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُواْ ۚ﴾ [٦].

٤) **الوارث الضعيف**، ﴿وَلْيَخْشَ ٱلَّذِينَ لَوْ تَرَكُواْ مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَٰفًا خَافُواْ عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُواْ ٱللَّهَ وَلْيَقُولُواْ قَوْلًا سَدِيدًا﴾[٩].

٥) **العُصاة**، فكل من أطاع شيطانه وعصى ربه فهو ضعيف ﴿وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴿١٤﴾ وَلَكُمْ نِصْفُ مَا تَرَكَ أَزْوَٰجُكُمْ إِن لَّمْ يَكُن لَّهُنَّ وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَ لَهُنَّ وَلَدٌ فَلَكُمُ ٱلرُّبُعُ مِمَّا تَرَكْنَ ۚ مِنۢ بَعْدِ وَصِيَّةٍ﴾[١٤-١٥]، وقال ﴿يَوْمَئِذٍ يَوَدُّ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ وَعَصَوُاْ ٱلرَّسُولَ لَوْ تُسَوَّىٰ بِهِمُ ٱلْأَرْضُ وَلَا يَكْتُمُونَ ٱللَّهَ حَدِيثًا﴾[٤٢] .

ومن شر أنواع المعاصي الحاسد ولا يكون إلا من ضعيف تام الضعف ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾ [٥٤] .

﴿وَمَن يَعْمَلْ سُوٓءًا أَوْ يَظْلِمْ نَفْسَهُۥ ثُمَّ يَسْتَغْفِرِ ٱللَّهَ يَجِدِ ٱللَّهَ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١١٠﴾ وَمَن يَكْسِبْ إِثْمًا فَإِنَّمَا يَكْسِبُهُۥ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمًا ﴿١١١﴾ وَمَن يَكْسِبْ خَطِيٓـَٔةً أَوْ إِثْمًا ثُمَّ يَرْمِ بِهِۦ بَرِيٓـًٔا فَقَدِ ٱحْتَمَلَ بُهْتَٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿١١٢﴾﴾[١١٠-١١٢].

٦) **تارك الجهاد خوفاً**: ﴿وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَىَّ إِذْ لَمْ أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِى كُنتُ مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ فَلْيُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾﴾ [٧٢-٧٤].

٧) **الموالي (الخدم)** ، ﴿وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُم مِّن فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ ۚ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّن بَعْضٍ ۚ فَانكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾﴾[٢٥] ، وقال ﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا﴾[٣٦].

٨) **الإنسان** ،كما قال تعالى : ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ [٢٨].

٩) **المظلوم** ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ إِلَّا أَن تَكُونَ تِجَارَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوا أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ عُدْوَانًا وَظُلْمًا فَسَوْفَ نُصْلِيهِ نَارًا ۚ وَكَانَ ذَٰلِكَ عَلَى اللَّهِ يَسِيرًا﴾[٢٩-٣٠] ، ﴿لَّا يُحِبُّ اللَّهُ الْجَهْرَ بِالسُّوءِ مِنَ الْقَوْلِ إِلَّا مَن ظُلِمَ ۚ وَكَانَ اللَّهُ سَمِيعًا عَلِيمًا﴾ [١٤٨].

١٠) **الفقير والمسكين**، كما قال تعالى: ﴿وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ﴾ [٣٦].

١١) **المسلم الجديد،** فيحتاج أن يُتدرج معه في التكاليف كما كان ذلك في مراحل تحريم الخمر ،كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَقْرَبُوا الصَّلَاةَ وَأَنتُمْ سُكَارَىٰ حَتَّىٰ تَعْلَمُوا مَا تَقُولُونَ﴾ [٤٣].

١٢) **المسلمون في حال ضعفهم وقوة عدوهم** ، كما قال تعالى : ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾ [٧٧].

١٣) **الضعف في العلم والفهم والاستنباط**، كما قال تعالى : ﴿ وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ فَقَٰتِلْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا تُكَلَّفُ إِلَّا نَفْسَكَ ۚ وَحَرِّضِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۖ عَسَى ٱللَّهُ أَن يَكُفَّ بَأْسَ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ۚ وَٱللَّهُ أَشَدُّ بَأْسًا وَأَشَدُّ تَنكِيلًا ﴿٨٤﴾﴾ [٨٣-٨٤].

١٤) **من لا يستطيع الجهاد**، كما قال تعالى : ﴿ لَا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُولِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنْفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلًّا وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَى وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا (٩٥) دَرَجَاتٍ مِنْهُ وَمَغْفِرَةً وَرَحْمَةً وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَحِيمًا (٩٦) إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنْفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنْتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا فَأُولَئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ وَسَاءَتْ مَصِيرًا (٩٧) إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا (٩٨) فَأُولَئِكَ عَسَى اللَّهُ أَنْ يَعْفُوَ عَنْهُمْ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴾[٩٥-٩٩].

١٥) **من يضعف عن إنكار المنكر**، كما قال تعالى : ﴿وَقَدْ نَزَّلَ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ أَنْ إِذَا سَمِعْتُمْ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ يُكْفَرُ بِهَا وَيُسْتَهْزَأُ بِهَا فَلَا تَقْعُدُواْ مَعَهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُواْ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦٓ ۚ إِنَّكُمْ إِذًا مِّثْلُهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ جَامِعُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْكَٰفِرِينَ فِى جَهَنَّمَ جَمِيعًا﴾ [١٤٠].

١٦) **الخائف**، كما قال تعالى : ﴿وَإِذَا كُنتَ فِيهِمْ فَأَقَمْتَ لَهُمُ ٱلصَّلَوٰةَ فَلْتَقُمْ طَآئِفَةٌ مِّنْهُم مَّعَكَ وَلْيَأْخُذُوٓاْ أَسْلِحَتَهُمْ ۖ فَإِذَا سَجَدُواْ فَلْيَكُونُواْ مِن وَرَآئِكُمْ وَلْتَأْتِ طَآئِفَةٌ أُخْرَىٰ لَمْ يُصَلُّواْ فَلْيُصَلُّواْ مَعَكَ وَلْيَأْخُذُواْ حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ ۗ وَدَّ

ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً ۚ وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾ [١٠٢].

١٧) **المريض**، كما قال تعالى : ﴿وَإِن كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَوْ عَلَىٰ سَفَرٍ أَوْ جَآءَ أَحَدٌ مِّنكُم مِّنَ ٱلْغَآئِطِ أَوْ لَـٰمَسْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَلَمْ تَجِدُواْ مَآءً فَتَيَمَّمُواْ صَعِيدًا طَيِّبًا فَٱمْسَحُواْ بِوُجُوهِكُمْ وَأَيْدِيكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَفُوًّا غَفُورًا﴾ [٤٣].

﴿وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ إِن كَانَ بِكُمْ أَذًى مِّن مَّطَرٍ أَوْ كُنتُم مَّرْضَىٰٓ أَن تَضَعُوٓاْ أَسْلِحَتَكُمْ ۖ وَخُذُواْ حِذْرَكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ أَعَدَّ لِلْكَـٰفِرِينَ عَذَابًا﴾ [١٠٢].

١٨) **المسافر**، كما قال تعالى ﴿وَإِذَا ضَرَبْتُمْ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَقْصُرُواْ مِنَ ٱلصَّلَوٰةِ إِنْ خِفْتُمْ أَن يَفْتِنَكُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓاْ ۚ إِنَّ ٱلْكَـٰفِرِينَ كَانُواْ لَكُمْ عَدُوًّا مُّبِينًا﴾ [١٠١].

١٩) **المستضعف في الأرض**، كما قال تعالى : ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا﴾ [٧٥].

٢٠) الكلالة، كما قال تعالى : ﴿يَسْتَفْتُونَكَ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِى ٱلْكَلَـٰلَةِ ۚ إِنِ ٱمْرُؤٌاْ هَلَكَ لَيْسَ لَهُۥ وَلَدٌ وَلَهُۥٓ أُخْتٌ فَلَهَا نِصْفُ مَا تَرَكَ ۚ وَهُوَ يَرِثُهَآ إِن لَّمْ يَكُن لَّهَا وَلَدٌ ۚ فَإِن كَانَتَا ٱثْنَتَيْنِ فَلَهُمَا ٱلثُّلُثَانِ مِمَّا تَرَكَ ۚ وَإِن كَانُوٓاْ إِخْوَةً رِّجَالًا وَنِسَآءً فَلِلذَّكَرِ مِثْلُ حَظِّ ٱلْأُنثَيَيْنِ ۗ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ أَن تَضِلُّواْ ۗ وَٱللَّهُ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ﴾ [١٧٦].

خامساً : كيفية التعامل مع هؤلاء الضعفاء

هذه وسائل السورة للسلامة يوم القيامة من حقوق الضعفاء:

أولاً : ابتدأت السورة بنداء عظيم من رب قادر عليم يأمر بتقواه: ﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ﴾[١]، فلا نجاة من ذلك إلا بملازمة التقوى في كل حركة وسكنة، وأمر ونهي، وقول وفعل، يتعلق بهؤلاء الضعفاء.

ثانياً : تذكر أن الخلق كلهم سواسية، وأن خالقهم واحد، وهو رقيب حسيب عليهم لا يفوته شيء من أمورهم، وأن المرأة خلقت من الرجل فإن ظلمها، فإنما يظلم بعضه ﴿الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَاءً ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[١].

ثالثاً : نفسك ضعيفة تنزع إلى الظلم فاحذرها ، قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ ۚ وَخُلِقَ الْإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾[٢٨]، وأعظم ظلم لها أن توقعها في حبائل الشرك كما قال سبحانه: ﴿إِنَّ اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾[٤٨]، وقال: ﴿اللَّهَ لَا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَٰلِكَ لِمَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا بَعِيدًا﴾[١١٦].

رابعاً : كمال العدل يكون بتحكيم شرع الله فيما فرضه في التعامل مع هؤلاء الضعفاء.

قال تعالى: ﴿فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾[٦٥]، وقال: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾[٥٩].

والتحاكم إلى غير شرع الله هو منتهى الظلم والبغي بل وضلال بعيد، كما قال سبحانه :

﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا بِمَا أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَا أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوا إِلَى الطَّاغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوا أَن يَكْفُرُوا بِهِ وَيُرِيدُ الشَّيْطَانُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَالًا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَى مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾﴾[٦٠-٦١].

خامساً: عاقبة العدل مع الضعفاء رحمة وسلامة، وعاقبة ظلمهم شقاء وخسارة، في الدنيا والآخرة معاً.

كما قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ ءَامَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَى أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيرًا فَاللَّهُ أَوْلَى بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الْهَوَى أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا﴾[١٣٥]، وقال سبحانه: ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ الَّذِينَ هَادُوا حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَاتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ اللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ الرِّبَا وَقَدْ نُهُوا عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَالَ النَّاسِ بِالْبَاطِلِ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾[١٦٠-١٦١] ، وقال: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الْأَمَانَاتِ إِلَى أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ إِنَّ اللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِ إِنَّ اللَّهَ كَانَ سَمِيعًا بَصِيرًا﴾[٥٨].

وقال في وعيد الظالمين : ﴿وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِن بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَى وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّى وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا﴾ [١١٥]، ومعنى (نوله ما تولى)، أي: نتركه وما اختار لنفسه، فإذا سلك طريق المشاقة لله ورسوله ﷺ جازيناه على ذلك في الدنيا بأن نحسنها في صدره ونزينها له استدراجاً له.

وفي الحديث قال ﷺ: **"ما من ذنب أحرى أن يعجل الله عقوبته في الدنيا، مع ما يدخر لصاحبه في الآخرة: من البغي وقطيعة الرحم"**. رواه أبو داود[١] والترمذي[٢] ، وقال الترمذي: هذا حديث صحيح.

---

(١) ح(٤٩٠٢).

(٢) ح(٢٥١١).

سادساً: الوعيد بالنار وصلي السعير التي تشتعل ببطون الظالمين ناراً كما قال تعلى ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ يَأۡكُلُونَ أَمۡوَٰلَ ٱلۡيَتَٰمَىٰ ظُلۡمًا إِنَّمَا يَأۡكُلُونَ فِي بُطُونِهِمۡ نَارٗاۖ وَسَيَصۡلَوۡنَ سَعِيرٗا﴾[١٠] وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدۡخِلۡهُ نَارًا خَٰلِدٗا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٞ مُّهِينٞ﴾[١٤].

سابعاً: الوعد الجميل بالجنة والفوز العظيم لمن عدل وامتثل أمر الله كما قال تعالى: ﴿تِلۡكَ حُدُودُ ٱللَّهِۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدۡخِلۡهُ جَنَّٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَاۚ وَذَٰلِكَ ٱلۡفَوۡزُ ٱلۡعَظِيمُ﴾[١٢، ١٣]، وقال سبحانه: ﴿وَمَن يَعۡمَلۡ مِنَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ مِن ذَكَرٍ أَوۡ أُنثَىٰ وَهُوَ مُؤۡمِنٞ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَدۡخُلُونَ ٱلۡجَنَّةَ وَلَا يُظۡلَمُونَ نَقِيرٗا ﴿١٢٤﴾ وَمَنۡ أَحۡسَنُ دِينٗا مِّمَّنۡ أَسۡلَمَ وَجۡهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحۡسِنٞ وَٱتَّبَعَ مِلَّةَ إِبۡرَٰهِيمَ حَنِيفٗاۗ وَٱتَّخَذَ ٱللَّهُ إِبۡرَٰهِيمَ خَلِيلٗا ﴿١٢٥﴾﴾[١٢٤-١٢٥].

ثامناً: فتح باب التوبة للعصاة ممن ظلم وبغى كما قال: ﴿وَٱللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡكُمۡ وَيُرِيدُ ٱلَّذِينَ يَتَّبِعُونَ ٱلشَّهَوَٰتِ أَن تَمِيلُواْ مَيۡلًا عَظِيمٗا﴾[٢٧]، وقال: ﴿إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ تَوَّابٗا رَّحِيمٗا﴾ [١٦] ، وقال: ﴿إِنَّمَا ٱلتَّوۡبَةُ عَلَى ٱللَّهِ لِلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلسُّوٓءَ بِجَهَٰلَةٖ ثُمَّ يَتُوبُونَ مِن قَرِيبٖ فَأُوْلَٰٓئِكَ يَتُوبُ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡۗ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلِيمًا حَكِيمٗا﴾ [١٧]، وكل من عصى الله فهو جاهل، وكل من تاب قبل الموت فقد تاب من قريب.

تاسعاً: ارض بالقضاء والقدر، وتذكر أن رزقك ونصرك على من ظلمك إنما يصلك من باب الضعفاء لا من باب الأقوياء. قال الله تعالى ﴿وَإِن تُصِبۡهُمۡ حَسَنَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ وَإِن تُصِبۡهُمۡ سَيِّئَةٞ يَقُولُواْ هَٰذِهِۦ مِنۡ عِندِكَۚ قُلۡ كُلّٞ مِّنۡ عِندِ ٱللَّهِۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلۡقَوۡمِ لَا يَكَادُونَ يَفۡقَهُونَ حَدِيثٗا﴾[٧٨]، وقال:﴿فَعَسَىٰٓ أَن تَكۡرَهُواْ شَيۡـٔٗا وَيَجۡعَلَ ٱللَّهُ فِيهِ خَيۡرٗا كَثِيرٗا﴾[١٩].

وسبق حديث البخاري: رأى سعد بن أبي وقاص ﷺ أن له فضلاً على من دونه، فقال

رسول الله ﷺ: "**هل تنصرون وترزقون إلا بضعفائكم** "[1].

وعن أبي الدرداء ﷺ قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: "**أبغوني ضعفاءكم؛ فإنما ترزقون وتنصرون بضعفائكم** " رواه أبو داود[2]، والترمذي[3] والنسائي[4].

عاشراً: تجنب الحسد فهو من أعظم دواعي البغي والظلم.

﴿وَلَا تَتَمَنَّوْا۟ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُوا۟ ۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَ ۚ وَسْـَٔلُوا۟ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمًا﴾[٣٢]، وقال: ﴿أَمْ يَحْسُدُونَ ٱلنَّاسَ عَلَىٰ مَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۖ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَـٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَءَاتَيْنَـٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا﴾[٥٤].

الحادي عشر: التحاكم إلى رجل عدل حكيم عند الاختلاف ويرضى بحكمه الطرفان، كما قال سبحانه ﴿وَإِنْ خِفْتُمْ شِقَاقَ بَيْنِهِمَا فَٱبْعَثُوا۟ حَكَمًا مِّنْ أَهْلِهِۦ وَحَكَمًا مِّنْ أَهْلِهَآ إِن يُرِيدَآ إِصْلَـٰحًا يُوَفِّقِ ٱللَّهُ بَيْنَهُمَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيمًا خَبِيرًا﴾[٣٥]، وقال: ﴿وَإِنِ ٱمْرَأَةٌ خَافَتْ مِنۢ بَعْلِهَا نُشُوزًا أَوْ إِعْرَاضًا فَلَا جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يُصْلِحَا بَيْنَهُمَا صُلْحًا ۚ وَٱلصُّلْحُ خَيْرٌ ۗ وَأُحْضِرَتِ ٱلْأَنفُسُ ٱلشُّحَّ ۚ﴾[١٢٨].

الثاني عشر: القتال من أجل نصرة المستضعفين ورفع الظلم عنهم.

قال تعالى: ﴿وَمَا لَكُمْ لَا تُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ هَـٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱلطَّـٰغُوتِ فَقَـٰتِلُوٓا۟ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَـٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَـٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾﴾[٧٥-٧٦].

---

(١) سبق تخريجه.

(٢) ح(٢٥٩٤).

(٣) ح(١٧٠٢).

(٤) ح(٣١٧٩).

الثالث عشر: معالجة ضعف العلم برد المعضلات إلى أهلها من أهل العلم.

كما قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُواْ بِهِۦۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُوْلِي ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا﴾[٨٣] .

الرابع عشر: معرفة مقادير الناس، ومهمات وصلاحيات كل واحد منهم؛ حتى لا تختلط الأمور وتضطرب سفينة الحياة، ويحصل بسبب ذلك ظلم عظيم على الضعفاء إما بتحميلهم ما ليس لهم، أو سلبهم ما هو لهم ومن مسؤولياتهم ومهامهم، كما قال تعالى: ﴿وَلَا تُؤْتُواْ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِي جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُواْ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا﴾[٥]، وقال ﴿وَٱبْتَلُواْ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُواْ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓاْ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْۖ﴾[٦]، وقال: ﴿وَلَا تَتَمَنَّوْاْ مَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بِهِۦ بَعْضَكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍۚ لِّلرِّجَالِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبُواْۖ وَلِلنِّسَآءِ نَصِيبٌ مِّمَّا ٱكْتَسَبْنَۚ وَسْـَٔلُواْ ٱللَّهَ مِن فَضْلِهِۦٓۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمًا﴾[٣٢]، وقال سبحانه:﴿ٱلرِّجَالُ قَوَّٰمُونَ عَلَى ٱلنِّسَآءِ بِمَا فَضَّلَ ٱللَّهُ بَعْضَهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ وَبِمَآ أَنفَقُواْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْۚ فَٱلصَّٰلِحَٰتُ قَٰنِتَٰتٌ حَٰفِظَٰتٌ لِّلْغَيْبِ بِمَا حَفِظَ ٱللَّهُۚ وَٱلَّٰتِي تَخَافُونَ نُشُوزَهُنَّ فَعِظُوهُنَّ وَٱهْجُرُوهُنَّ فِي ٱلْمَضَاجِعِ وَٱضْرِبُوهُنَّۖ فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُواْ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًاۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾[٣٤].

الخامس عشر: تعامل بالفضل لا بالعدل

كما قال تعالى:﴿وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ﴾ [٦]، ونبه بعد أن ذكر المباحات على الأفضل فقال : ﴿ وَمَنْ لَمْ يَسْتَطِعْ مِنْكُمْ طَوْلًا أَنْ يَنْكِحَ الْمُحْصَنَاتِ الْمُؤْمِنَاتِ فَمِنْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ مِنْ فَتَيَاتِكُمُ الْمُؤْمِنَاتِ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَانِكُمْ بَعْضُكُمْ مِنْ بَعْضٍ فَانْكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَآتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ مُحْصَنَاتٍ غَيْرَ مُسَافِحَاتٍ وَلَا مُتَّخِذَاتِ أَخْدَانٍ فَإِذَا أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَاحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى الْمُحْصَنَاتِ مِنَ الْعَذَابِ ذَلِكَ لِمَنْ خَشِيَ الْعَنَتَ مِنْكُمْ وَأَنْ تَصْبِرُوا خَيْرٌ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴾ [٢٥] .

السادس عشر: ظلم الأقارب من الآباء والأمهات والأولاد والأرحام والزوجة أشد جُرماً؛ لأنه يجمع بين البغي والقطيعة كما قال سبحانه: ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالْأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾[١]، وقال:﴿وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ﴾ [٣٦]، وقال في حق معاشرة الزوجة:﴿وَعَاشِرُوهُنَّ بِالْمَعْرُوفِ﴾ [١٩]، وقال في النفقة:﴿وَإِنْ أَرَدتُّمُ اسْتِبْدَالَ زَوْجٍ مَّكَانَ زَوْجٍ وَآتَيْتُمْ إِحْدَاهُنَّ قِنطَارًا فَلَا تَأْخُذُوا مِنْهُ شَيْئًا ۚ أَتَأْخُذُونَهُ بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٢٠﴾ وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَاقًا غَلِيظًا ﴿٢١﴾﴾[٢٠-٢١].

السابع عشر: ترك البخل والشح الذي يمنع من إكرام الضعيف والفقير.

كما قال تعالى: ﴿الَّذِينَ يَبْخَلُونَ وَيَأْمُرُونَ النَّاسَ بِالْبُخْلِ وَيَكْتُمُونَ مَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ ۗ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَافِرِينَ عَذَابًا مُّهِينًا﴾[٣٧]، وقال:﴿ وَمَاذَا عَلَيْهِمْ لَوْ آمَنُوا بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَنفَقُوا مِمَّا رَزَقَهُمُ اللَّهُ ۚ وَكَانَ اللَّهُ بِهِمْ عَلِيمًا ﴿٣٩﴾ إِنَّ اللَّهَ لَا يَظْلِمُ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ ۖ وَإِن تَكُ حَسَنَةً يُضَاعِفْهَا وَيُؤْتِ مِن لَّدُنْهُ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٤٠﴾﴾[٣٩-٤٠].

فتريد أن تقرأها أو تستمع إليها، فاعرض نفسك عليها، كيف أنت في إنصافك من نفسك وأدائك لحق الضعيف أو انتصارك له حين يُظلم، أياً كان:

- المرأة سواءً كانت: أمّاً أو بنتاً أو أختاً أو زوجةً أو قريبة أو بعيدة، مسلمة أو كافرة.
- اليتيم واليتيمة أو اللقيط واللقيطة حين يُظلمون من المجتمع.
- الوارث أو الوارثة حرموا من ميراثهم.
- سائق أو خادمة أو عامل لم يستلموا حقوقهم من أشهر متطاولة.
- مظلوم من الناس أو من الحكومات.
- مريض لم يجد مستشفى يؤويه.
- خائف مستضعف من جبار في الأرض. وغيرهم كثير،،

ثم تأمل بعضاً من تهديد الله للباغيين على حقوق الضعفاء حين قال : ﴿وَكَفَىٰ بِاللَّهِ

حَسِيبًا﴾[٦]، وبعد آية المواريث قال : ﴿تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ ۚ وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ يُدْخِلْهُ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ وَذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٣﴾ وَمَن يَعْصِ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَتَعَدَّ حُدُودَهُۥ يُدْخِلْهُ نَارًا خَٰلِدًا فِيهَا وَلَهُۥ عَذَابٌ مُّهِينٌ ﴾ [١٣-١٤].

وفي شأن استرداد المهر قال: ﴿وَكَيْفَ تَأْخُذُونَهُۥ وَقَدْ أَفْضَىٰ بَعْضُكُمْ إِلَىٰ بَعْضٍ وَأَخَذْنَ مِنكُم مِّيثَٰقًا غَلِيظًا﴾[٢١]، ﴿فَإِنْ أَطَعْنَكُمْ فَلَا تَبْغُوا۟ عَلَيْهِنَّ سَبِيلًا ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلِيًّا كَبِيرًا﴾ [٣٤].

وفي شأن الربا قال : ﴿فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾﴾ [١٦٠-١٦١].

هذا حديث سورة" النساء "إلينا ، فاللهم اجعلها حجة لنا لا علينا ..

كيف نقرأ سورة المائدة ؟

هذه السورة من عظائم القرآن، وهي من **السور المحكمة**؛ لأنها من أواخر ما نزل، وورد فيها من الأحكام ما لم يرد في غيرها.

واسم "المائدة" هو أشهر أسمائها وكانت تُسمى عند الأوائل بسورة "الأخيار" كما سيأتي، ومن أسمائها "العقود" وسبب ذلك ظاهر من أول آية فيها، وتُسمى سورة "الأحبار" للتكرر لفظ "الأحبار" فيها، ولما فيها من العلم الذي لا يقف عليه إلا الأحبار من أهل العلم.(١)

وهي إحدى السبع الطوال بل هي أكثر سور القرآن أحكاماً، ومن أواخرها نزولاً كما قالته أم المؤمنين عائشة الصديقة، فعند أحمد في المسند عن جبير بن نفير قال: حججت فدخلت على عائشة، فقالت لي: يا جبير، تقرأ المائدة ؟ فقلت: نعم. فقالت: "أما إنها آخر سورة نزلت فما وجدتم فيها من حلال فاستحلوه، وما وجدتم فيها من حرام فحرموه".(٢)

وقال شيخ الإسلام: "**المائدة أجمع سورة في القرآن لفروع الشرائع من التحليل والتحريم والأمر والنهي**.. وذُكر فيها من التحليل والتحريم والإيجاب ما لم يذكر في غيرها، والآيات فيها متناسبة"(٣) .

ولو تتبعنا عناوين الأحكام فقط في هذه السورة، لوجدناها كثيرة، منها:

الصيد، ونكاح الكتابيات، وطعامهم، واتخاذ الكفار أولياء، وحد السرقة، وحد الحرابة، والقصاص، والعقود وهي العهود. ويدخل في ذلك عهد الله سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى، فكل مؤمن هو معاهد لله عز وجل بالإيمان والتصديق للنبي ﷺ، واتباع أمره.

وأيضاً من الأحكام: البيوع، والشركة، والإجارة، والنكاح، والبيعة، والوكالة، وهذه من أنواع العقود، وهي داخلة في قوله تعالى: ﴿أَوْفُوا بِالْعُقُودِ﴾ [١]. وكفارة اليمين، وحكم الخمر، وحد الخمر، والطهارة، والتيمم، وغيرها.

قال ابن عطية: "حكى النقاش أن أصحاب الكندي قالوا للكندي: أيها الحكيم، اعمل

(١) ينظر: كتاب أسماء سور القرآن، ص ١٨١.

(٢) ح(٢٥٥٤٧).

(٣) مجموع الفتاوى (٤٤٨/١٤).

لنا مثل هذا القرآن، فقال: نعم، أعمل مثل بعضه، فاحتجب أياماً كثيرة ثم خرج فقال: والله ما أقدر عليه، ولا يطيق هذا أحد، إني فتحت المصحف، فخرجت المائدة، فنظرت فإذا هو قد أمر بالوفاء ونهى عن النكث وحلل تحليلاً عاماً، ثم استثنى استثناء بعد استثناء، ثم أخبر عن قدرته وحكمته في سطرين ولا يستطيع أن يأتي أحد بهذا إلا في أجلاد"[١]، أي: مجلدات.

ولفهم هذه السورة العظيمة ألخص أبرز ما ينبغي تعلمه منها :

أولاً: حزبها "موضعها من المصحف العثماني"

هي رابع السبع الطوال، وجاءت تالية للنساء، فالنساء لتمتين البيت من داخله، والمائدة لتحصينه من خارجه، وموضوع الحزب كله يدور حول ثلث الأحكام، وهذه السورة هي أجمع سور القرآن للحلال والحرام.

ثانياً: متى نزلت وأين؟ (موضعها الزماني والمكاني)

هي مدنية باتفاق المفسرين كما حكاه ابن عطية[٢]، بل من أواخر المدني نزولاً بلا خلاف بينهم، وجاء عن عبد الله بن عمرو وعائشة أنها آخر سور القرآن نزولاً كما تقدم قريباً، وروي ذلك مرفوعاً؛ ولا يصح، ويقول الكيا الهراسي الطبري: ويقوي ذلك أن المائدة من آخر القرآن نزولاً، حتى قال ابن عباس والحسن وغيرهما إنه لا منسوخ فيها[٣].

وفي مسند أحمد عن عبد الله بن عمرو، وأسماء بنت يزيد: أنها نزلت ورسول الله في سفر، وهو على ناقته العضباء، وأنها نزلت عليه كلها. قال الربيع بن أنس: نزلت المائدة في مسير رسول الله ﷺ إلى حجة الوداع.

وفي شعب الإيمان، عن أسماء بنت يزيد: أنها نزلت بمنى.

وعن محمد بن كعب: أنها نزلت في حجة الوداع بين مكة والمدينة.

وهذه الأقوال تتفق أنها من آخر القرآن نزولاً؛ وهو المقصود.

---

(١) المحرر الوجيز (١٤٥/٢).

(٢) أحكام القرآن (١٤٣/٢).

(٣) أحكام القرآن (١١٨/٣).

وهذا يقوي القول بأن المائدة ليس فيها منسوخ، وهو قول الشعبي، فقد رواه عنه أبو جعفر النحاس في الناسخ والمنسوخ[1]، وكذلك روى أبو داود في الناسخ والمنسوخ هذا القول عن الحسن البصري[2].

وعن أبي ميسرة قال: "في المائدة ثمان عشرة فريضة ليست في سورة من القرآن غيرها، وليس فيها منسوخ"[3].

وقد أوصل بعضهم الآيات المنسوخة في المائدة إلى تسع آيات كما ذكر ذلك ابن الجوزي في نواسخ القرآن[4]، وكثير منها ليس نسخاً، أي: رفع حكم متقدم بحكم متأخر، وإنما هو تخصيص عام وتقييد مطلق، ونحو ذلك مما يسمى نسخاً في مصطلح السلف[5].

وفيها نزل قوله تعالى: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ﴾، وهي من أواخر ما نزل فقد نزلت في حجة الوداع، وفي الصحيحين عن طارق بن شهاب، قال: قال رجل من اليهود لعمر: يا أمير المؤمنين، لو أن علينا نزلت هذه الآية: ﴿ٱلْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ ٱلْإِسْلَٰمَ دِينًا﴾[٣]، لاتخذنا ذلك اليوم عيداً، فقال عمر: إني لأعلم أي يوم

---

(١) (١/٣٥٨).

(٢) يُنظر: نواسخ القرآن لابن الجوزي (٢/٣٩٥).

(٣) الجامع لأحكام القرآن (٦/٣٠).

(٤) (٢/٤١٩).

(٥) قال ابن القيم: " قلت: ومراد عامة السلف بالناسخ والمنسوخ: رفع الحكم بجملته تارة . وهو اصطلاح المتأخرين . ورفع دلالة العام والمطلق والظاهر وغيرها تارة، إما بتخصيص أو تقييد، أو حمل مطلق على مقيد، وتفسيره وتبيينه، حتى إنهم يسمون الاستثناء والشرط والصفة نسخاً لتضمن ذلك رفع دلالة الظاهر وبيان المراد.

فالنسخ عندهم وفي لسانهم هو: بيان المراد بغير ذلك اللفظ بل بأمر خارجٍ عنه ومن تأمل كلامهم رأى من ذلك فيه ما لا يُحصى، وزال عنه به إشكالات أوجبها حمل كلامهم على الاصطلاح الحادث المتأخر "، إعلام الموقعين (١/٢٥).

وقال الشاطبي (ت: ٧٩٠ هـ): " وذلك أن الذي يظهر من كلام المتقدمين أن النسخ عندهم في الإطلاق أعم منه في كلام الأصوليين: فقد يطلقون على تقييد المطلق نسخاً، وعلى تخصيص العموم بدليل متصل أو منفصل نسخاً، وعلى بيان المبهم والمجمل نسخاً، كما يطلقون على رفع الحكم الشرعي بدليل شرعي متأخر نسخاً. الموافقات: (٣ / ٨١). وانظر منه أيضاً: (٣ / ٨٨).

نزلت هذه الآية، نزلت يوم عرفة، في يوم جمعة[1].

وقد نزلت المائدة متأخرة، وروي أنها نزلت منصرف رسول الله ﷺ من الحديبية[2]، وهي الفترة التي بدأ فيها يؤسس لدولة الإسلام التي بدأت تنتشر هيبتها؛ ولهذا كان التركيز فيها قوياً على بناء ميثاق الدولة التي يرسم لها طريق القوة والاستقرار، فاحتوت كثيراً من الأحكام التشريعية خاصة في ميدان العلاقات الخارجية وتصنيف الخصوم والبت في بعض الأحكام للدلالة الواضحة على رسو سفينة الدولة الإسلامية وتشييد أركانها وقيام سلطانها[3].

ومن هذين الموضعين الزماني والمكاني يتبين أن السورة نزلت بعد تأسيس الدولة الكاملة، وكانت ختاما للشريعة الحاكمة، فما ورد فيها من الأحكام لابد أن يراعى تحقيق المناط قبل تنزيلها على أفراد أو مجتمعات، خصوصاً المستضعفين من المسلمين في قفر من الأرض لا تقوى متونهم على حمل ثلث أحكامها، فضلاً عن الأخذ بكامل ما تنزلت به.

ثالثاً: فيمَ نزلت ؟ (مقصودها)

ومقصودها يُستدل عليه من اسمها وفاتحتها وختامها وما تكرر فيها، يقول العلامة عبدالرزاق عفيفي ـ رحمه الله ـ: "**السورة كلها في العقود والمواثيق**"[4]. وذكر ذلك أيضاً فؤاد زيدان في كتابه أهداف سور القرآن الكريم، في الكلام عن مقصد المائدة، وقد تتبعت كثيرا من كلام المعتنين بعلم "مقاصد السور" في حديثهم عن مقصود المائدة، فكانوا يؤكدون هذا المعنى ، وهو كما ذكروا، فأولها (أوفوا بالعقود)، وآخرها (يوم ينفع الصادقين صدقهم)، وفيها قوله تعالى: ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٧]،وقوله:﴿ وَلَقَدْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ اثْنَيْ عَشَرَ نَقِيبًا وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ

---

(١) البخاري ح(٧٢٦٨)، مسلم ح(٣٠١٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦ / ٣٠).

(٣) ينظر مقال للدكتور أحمد ذو النورين بعنوان: هدايات المائدة .

(٤) ذكر ذلك في شريط له مسجل بعنوان (مقاصد السور).

اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ (١٢) فَبِمَا نَقْضِهِمْ مِيثَاقَهُمْ لَعَنَّاهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَاسِيَةً ...﴾[١٢، ١٣]، وقوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَهُمۡ فَنَسُواْ حَظّٗا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾[١٤]، وقوله: ﴿لَقَدۡ أَخَذۡنَا مِيثَٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ وَأَرۡسَلۡنَآ إِلَيۡهِمۡ رُسُلٗا﴾[٧٠].

واسمها مأخوذ من ميثاق المائدة العظيم الذي قال الله في ناقضيه: ﴿فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابٗا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدٗا مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾، والعهود فيها أربعة: مع الله أو رسوله ﷺ أو المؤمنين أو الكافرين، وكلها واجبة الوفاء.

يقول ابن عاشور: هذه السورة سميت في كتب التفسير، وكتب السنة، بالمائدة؛ لأن فيها قصة المائدة التي أرسلها الحواريون من عيسى عليه السلام، وقد اختصت بذكرها، وفي مسند أحمد بن حنبل وغيره وقعت تسميتها المائدة في كلام عبد الله بن عمر، وعائشة أم المؤمنين، وأسماء بنت يزيد، وغيرهم. فهذا أشهر أسمائها.

وتسمى أيضاً العقود: إذ وقع هذا اللفظ في أولها؛ وتسمى أيضا المنقذة. ففي أحكام ابن الفرس: روي عن النبي ﷺ قال: "المائدة تدعى في ملكوت السماوات المنقذة"، قال: "أي إنها تنقذ صاحبها من أيدي ملائكة العذاب".

وفي كتاب كنايات الأدباء لأحمد الجرجاني : "يقال: فلان لا يقرأ الأخيار، أي: لا يفي بالعهد، وذلك أن الصحابة ﷺ كانوا يسمون المائدة الأخيار، قال جرير: إن البعيث وعبد آل متاعس ... لا يقرآن بالأخيار[١]

رابعاً : قصص سورة المائدة

ذكر الله لأ في المائدة **ثلاث قصص صراحة، وواحدة إشارة**، وهذه الواحدة هي جزاء من أوفى بعهده مع الله، والثلاث كلها لمن نقض عهده وميثاقه مع الله: وهي قصة ابني آدم، وقصة قومي موسى وعيسى عليهما السلام.

---

(١) التحرير والتنوير(٥ / ٥).

- **وهذا ترتيبها حسب ورودها في السورة :**

١ . **قصة وفاء الصحابة بميثاقهم مع الله ومع الناس وغدر اليهود ونقضهم للميثاق،**

قال الله تعالى: ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾[٧]، فأخذ الله عليهم الميثاق في بيعتهم لرسول الله ﷺ في مواطن عدة منها بيعتهم حين إسلامهم وبيعة العقبة الأولى والثانية وبيعة الرضوان وغيرها.

ثم أمرهم بالوفاء مع الناس الحبيب والبغيض كما قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ لِلَّهِ شُهَدَاءَ بِالْقِسْطِ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴾[٨]، فوفوا بذلك أيضاً أتم الوفاء، فكان جزاء ذلك من الله أن نصرهم على من غدر بهم فقال سبحانه: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوا إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ وَاتَّقُوا اللَّهَ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴾ [١١].

وذهب ابن إسحاق ومجاهد وعكرمة وغير واحد: أنها نزلت في شأن بني النضير، حين أرادوا أن يلقوا على رأس رسول الله ﷺ الرحى، لما جاءهم يستعينهم في دية العامريين، ، فالمؤمنون وفوا بعهدهم مع بني النضير، بينما بنوا النضير غدروا ونقضوا الميثاق، فكان جزاء الموفين النصر والتمكين وجزاء الغادرين أن خسروا أرضهم وديارهم وأموالهم، وقد أوضح ذلك ابن كثير فأحسن وأطاب، ومما قال: لما أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالوفاء بعهده وميثاقه، الذي أخذه عليهم على لسان عبده ورسوله محمد ﷺ، وأمرهم بالقيام بالحق والشهادة بالعدل، وذكرهم نعمه عليهم الظاهرة والباطنة، فيما هداهم له من الحق والهدى، شرع يبين لهم كيف أخذ العهود والمواثيق على من كان قبلهم من أهل الكتابين: اليهود والنصارى، فلما نقضوا عهوده ومواثيقه أعقبهم ذلك لعنا منه لهم، وطرداً عن بابه وجنابه، وحجاباً لقلوبهم عن الوصول إلى الهدى ودين الحق"[١].

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٦٣-٦٤).

٢ . قصة موسى؛ مع قومه كما قال تعالى:

﴿وَلَقَدْ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَبَعَثْنَا مِنْهُمُ ٱثْنَىْ عَشَرَ نَقِيبًا ۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّى مَعَكُمْ ۖ لَئِنْ أَقَمْتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيْتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِى وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ ۚ فَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَٰلِكَ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقْضِهِم مِّيثَٰقَهُمْ لَعَنَّٰهُمْ وَجَعَلْنَا قُلُوبَهُمْ قَٰسِيَةً ۖ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ ۙ وَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ ۚ وَلَا تَزَالُ تَطَّلِعُ عَلَىٰ خَآئِنَةٍ مِّنْهُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱصْفَحْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ﴾[١٢-١٣].

وذكر ابن عباس وابن إسحاق[١] وغيرهما أن هذا كان لما توجه موسى، عليه السلام، لقتال الجبابرة في فلسطين، فأمره الله بأن يقيم النقباء، من كل سبط يختار نقيباً يكون رئيسا لقومه ورسولا عنهم يذهبون فيطلعون على الجبابرة من كنعان فيعرفون قوتهم وعددهم وصلاح أرضهم ونحو ذلك، ويأتون بخبرهم، فلما اطلع هؤلاء النقباء على قوة الجبابرة وشدة خلقهم، وكان الله اشترط عليهم أن (يعزروا رسله)، أي: ينصروهم ويقاتلوا معهم، نكث عشرة من هؤلاء النقباء وخافوا من قتال الجبابرة وخوفوا قومهم كذلك، ولم يكفهم أن الله وعدهم أنه معهم سبحانه، ولم يف بعهدهم من هؤلاء الأسباط إلا اثنين منهم يوشع بن نون ابن أخت موسى عليه السلام وكالب بن يوفنا.

وكان الميثاق بين هؤلاء النقباء وقومهم من ورائهم مع الله على أمور خمسة: (وقال الله إني معكم لئن ١/أقمتم الصلاة ٢/وآتيتم الزكاة ٣/وآمنتم برسلي ٤/وعزرتموهم ٥/وأقرضتم الله قرضا حسنا) والزكاة هي المفروضة، والقرض هو النفل، والتعزير هو النصر والتأييد.

فإن وفوا مع ربهم فالثواب ثلاثة: ١/إني معكم: (٢/لأكفرن عنكم سيئاتكم ٣/ولأدخلنكم جنات تجري من تحتها الأنهار)، فهم منصورون في الدنيا، مغفورة عنهم ذنوبهم، وفي الآخرة في جنات ونهر.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٦٤).

وإن نقضوا ميثاقهم فالجزاء أربعة: (فبما نقضهم ميثاقهم ١/لعناهم ٢/وجعلنا قلوبهم قاسية ٣/يحرفون الكلم عن مواضعه ٤/ونسوا حظاً مما ذكروا به).

فنقضوا الميثاق؛ فحقت عليهم اللعنة، وجعل الله قلوبهم قاسية لا يستفيدون من موعظة مهما جلّت، وحرفوا التوراة عن مواضعها تارة بالتبديل وتارة بالتأويل، ونسوا نصيباً مما أنعم الله به عليهم في التوراة، وهداهم إليه؛ لكنهم إما تركوها فلم يستجيبوا لها أو فعلوها على وجه لا يقبله الله منهم، فضيعوا حظ الدنيا والآخرة معاً.

قال ابن عاشور: "وقد جمعت الآية من الدلائل على قلة اكتراثهم بالدين ورقة اتباعهم ثلاثة أصول من ذلك، وهي: التعمد إلى نقض ما عاهدوا عليه من الامتثال، والغرور بسوء التأويل، والنسيان الناشئ عن قلة تعهد الدين، وقلة **الاهتمام** به".[1]

وحين أوجس موسى من قومه النكوص عما عاهدوا الله عليه، قال مذكراً لهم ومخوفاً إياهم من تحول النعم عنهم: ﴿ وَإِذْ قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِۦ يَٰقَوْمِ ٱذْكُرُواْ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَعَلَ فِيكُمْ أَنۢبِيَآءَ وَجَعَلَكُم مُّلُوكًا وَءَاتَىٰكُم مَّا لَمْ يُؤْتِ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾[٢٠].

وبين لهم أن المشروط يسير: ﴿ يَٰقَوْمِ ٱدْخُلُواْ ٱلْأَرْضَ ٱلْمُقَدَّسَةَ ٱلَّتِى كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَرْتَدُّواْ عَلَىٰٓ أَدْبَارِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَٰسِرِينَ ﴾[٢١].

ولم يجد معهم من ذلك شيء ﴿ قَالُواْ يَٰمُوسَىٰٓ إِنَّ فِيهَا قَوْمًا جَبَّارِينَ وَإِنَّا لَن نَّدْخُلَهَا حَتَّىٰ يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِن يَخْرُجُواْ مِنْهَا فَإِنَّا دَٰخِلُونَ ﴾[٢٢].

إلا يوشع وكالب كما تقدم: ﴿ قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِمَا ٱدْخُلُواْ عَلَيْهِمُ ٱلْبَابَ فَإِذَا دَخَلْتُمُوهُ فَإِنَّكُمْ غَٰلِبُونَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَتَوَكَّلُوٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴾[٢٣].

ولم تقبل النصيحة حتى من النقباء: (قَالُوا يَا مُوسَى إِنَّا لَنْ نَدْخُلَهَا أَبَدًا مَا دَامُوا فِيهَا) بل أكدوا النفي بثلاث مؤكدات: (إنّ)، و (لن)، وكلمة (أبداً). وبلغوا حدا من القِحَة لا يوصف حين قالوا لنبيهم ومن أنجاهم الله به: ﴿فَٱذْهَبْ أَنتَ وَرَبُّكَ فَقَٰتِلَآ إِنَّا هَٰهُنَا قَٰعِدُونَ ﴾[٢٤]، حينها قال موسى:﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّى لَآ أَمْلِكُ إِلَّا نَفْسِى وَأَخِى ۖ فَٱفْرُقْ بَيْنَنَا

(١) التحرير والتنوير(٦/١٤٤).

﴿وَبَيْنَ ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾ [٢٥]؛ فنزلت عقوبة الله العاجلة عليهم أن تاهوا في شبه جزيرة سيناء أربعين سنة ﴿قَالَ فَإِنَّهَا مُحَرَّمَةٌ عَلَيْهِمْ أَرْبَعِينَ سَنَةً يَتِيهُونَ فِى ٱلْأَرْضِ فَلَا تَأْسَ عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْفَٰسِقِينَ﴾[٢٦].

٣ . قصة ابني آدم عليه السلام :

﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱبْنَىْ ءَادَمَ بِٱلْحَقِّ إِذْ قَرَّبَا قُرْبَانًا فَتُقُبِّلَ مِنْ أَحَدِهِمَا وَلَمْ يُتَقَبَّلْ مِنَ ٱلْءَاخَرِ قَالَ لَأَقْتُلَنَّكَ قَالَ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ ٱللَّهُ مِنَ ٱلْمُتَّقِينَ ﴿٢٧﴾ لَئِنۢ بَسَطتَ إِلَىَّ يَدَكَ لِتَقْتُلَنِى مَآ أَنَا۠ بِبَاسِطٍ يَدِىَ إِلَيْكَ لِأَقْتُلَكَ إِنِّىٓ أَخَافُ ٱللَّهَ رَبَّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٢٨﴾ إِنِّىٓ أُرِيدُ أَن تَبُوٓأَ بِإِثْمِى وَإِثْمِكَ فَتَكُونَ مِنْ أَصْحَٰبِ ٱلنَّارِ وَذَٰلِكَ جَزَٰٓؤُا۟ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٢٩﴾ فَطَوَّعَتْ لَهُۥ نَفْسُهُۥ قَتْلَ أَخِيهِ فَقَتَلَهُۥ فَأَصْبَحَ مِنَ ٱلْخَٰسِرِينَ ﴿٣٠﴾﴾ [٢٧-٣٠].

ومناسبة هذه القصة لمقصود السورة: هو أن الله أخذ على آدم وذريته مواثيق يجب الوفاء بها، وقد ذكرها الله في تضاعيف قصتهما، ومن ذلك: أن الله إنما يتقبل من المتقين، وأن قتل النفس البشرية محرم إلا بحجة جاءت عن الله وصاحبه من الخاسرين في الدنيا والآخرة، وأن الظالمين هم من أصحاب النار.

وجاء عن السلف أخبار كثيرة أخذت من أخبار بني إسرائيل سردها السيوطي في الدر المنثور وغيره، وروى ابن أبي حاتم وابن جرير عن ابن مسعود وابن عباس وهذا لفظ ابن عباس قال: نهي أن تنكح المرأة أخاها توأمها، وأمر أن ينكحها غيره من إخوتها، وكان يولد له في كل بطن رجل وامرأة، فبينما هم كذلك إذ ولد له امرأة وضيئة وولد له أخرى قبيحة دميمة، فقال أخو الدميمة: أنكحني أختك وأنكحك أختي، فقال لا، أنا أحق بأختي، فقربا قرباناً فتقبل من صاحب الكبش ولم يتقبل من صاحب الزرع، فقتله[١]. قال ابن كثير: إسناد جيد[٢].

ومن لطيف ما يذكر هنا، ما قاله الأستاذ الدكتور عبد الجواد المحص في موسوعة الجمال في القرآن الكريم: " إن اختيار الغراب بالتحديد ولم يذكر غيره من بين سائر الطير ليتعلم قابيل:

---

(١) جامع البيان (٨/٣٣٩).

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/٨٣).

كيف يواري سوءة أخيه؟ إذ لا يصلح غيره للقيام بهذه المهمة، وأداء هذا الدور الذى يبدو فيه معلماً لقابيل دفن الموتى، ذلك أن الغراب "**طائر أسود محترق قبيح الشمائل ردئ ليس من بهائم الطير المحمودة، ولا من سباعها الشريفة، وهو طائر يتنكد به، ويتطير منه، آكل جيف، رديء الصيد، وكلما كان أجهل وأنزل، كان أبلغ في التوبيخ والتقريع، على أنه من ناحية أخرى يمتاز بحدة البصر، وشدة المنقار حتى إنه ليصل إلى الكمأة المندفنة في الأرض بنقرة واحدة، وهو من قبل ومن بعد أكثر من جميع ما يتطير به في الشؤم... ومما لا شك فيه أن الغراب الذى هذه هي أوصافه وخصائصه هو الطائر الوحيد المناسب للجو الأسود الحزين الذى يغلف هذه المأساة.. مأساة قتل قابيل لأخيه هابيل** ولا سيما أن الغراب خلق أسود ويموت أسود ولا يشيب أبداً

[ومن طلب النجاح بغير كد : سيدركه إذا شاب الغراب]

والغراب باسمه ولفظه يتناسق مع (الغربة) و(الغرابة) اللذين توحي بهما تلك المأساة التي وقعت لأول مرة في تاريخ البشرية، لقد أدت هذه المأساة إلى غربة هابيل عن الحياة الدنيا، وغروب شمس حياته من الوجود، ولم يدر قابيل أن سفكه لدم أخيه جريمة تستغرب وتستقبح !!.، فالغراب هنا مقام الغربة والغرابة والغروب، **والهدهد هناك في مقام الهدى والهداية.. إنه التناسق في الاسم، وفى اللون وفى المعنى، وفى الإيماء..** يراه الإنسان حينما يقف وقفة تأمل فيما يسوقه القرآن الكريم من عجائب!!

فأوفى الأخ الأصغر هابيل ونقض الأكبر قابيل، وكان نتاج نقض قابيل أن تحمل إثم كل نفس قتلت بعد ذلك، وجاء في الحديث: "**لا تقتل نفس ظلما إلا كان على ابن آدم الأول كفل من دمها؛ لأنه أول من سن القتل**" أخرجه البخاري[1] ومسلم[2].

ومصداق ذلك في كتاب الله أن قال الله تعالى: ﴿مِنْ أَجْلِ ذَٰلِكَ كَتَبْنَا عَلَىٰ بَنِي إِسْرَاءِيلَ أَنَّهُ مَن قَتَلَ نَفْسًا بِغَيْرِ نَفْسٍ أَوْ فَسَادٍ فِي الْأَرْضِ فَكَأَنَّمَا قَتَلَ النَّاسَ جَمِيعًا وَمَنْ أَحْيَاهَا فَكَأَنَّمَا أَحْيَا النَّاسَ جَمِيعًا ۚ وَلَقَدْ جَاءَتْهُمْ رُسُلُنَا بِالْبَيِّنَاتِ ثُمَّ إِنَّ كَثِيرًا مِّنْهُم بَعْدَ

---

(١) ح(٣٣٣٥).

(٢) ح(١٦٧٧).

ذَٰلِكَ فِي ٱلْأَرْضِ لَمُسْرِفُونَ ﴿٣٢﴾ إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِي ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْيٌ فِي ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِي ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾ إِلَّا ٱلَّذِينَ تَابُواْ مِن قَبْلِ أَن تَقْدِرُواْ عَلَيْهِمْ ۖ فَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٤﴾﴾[٣٢-٣٤].

والمناسبةُ بينها وبين القصّة الّتي قبلها وهي قصة موسى مع قومه في دخول أرض الجبارين مناسبة من جهتين: تماثل وتضادّ.

فأما التماثل فإنّ في كلتيهما عدم الرضا بما حكم الله تعالى: فإنّ بني إسرائيل عصوا أمر رسولهم إيّاهم بالدخول إلى الأرض المقدّسة، وأحدَ ابني آدم عصى حكم الله تعالى بعدم قبول قربانه لأنّه لم يكن من المتّقين.

وأمّا التّضادّ فإنّ في إحداهما إقداماً مذموماً من ابن آدم، وإحجاماً مذموماً من بني إسرائيل. نبه عليه ابن عاشور[1].

٤ . قصة عيسى؛ مع قومه :

هي القصة التي سميت بها السورة (المائدة)، وعلاقتها بمقصد السورة ظاهر، فقد نص القرآن على أن الله أخذ عليهم "الميثاق"، فقال سبحانه﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ﴾.

وقد ذكر الله لأ قصة عيسى؛ موزعة في السورة فكان أول موضع لها قوله تعالى ﴿وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُواْ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُواْ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُواْ يَصْنَعُونَ﴾[١٤]، ﴿لَّقَدْ كَفَرَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلْمَسِيحُ ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ ٱللَّهِ شَيْـًٔا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ ٱلْمَسِيحَ ٱبْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُۥ وَمَن فِي ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا ۗ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۚ يَخْلُقُ مَا يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ

(١) التحرير والتنوير(٦/١٦٨).

﴿شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٧].

وهذا أعظم ميثاق نقضوه وهو ميثاق التوحيد وتأليههم عبده المسيح شريكاً مع الله، وكان جواب الله لهم ﴿لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ هُوَ الْمَسِيحُ ابْنُ مَرْيَمَ ۚ قُلْ فَمَن يَمْلِكُ مِنَ اللَّهِ شَيْئًا إِنْ أَرَادَ أَن يُهْلِكَ الْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَأُمَّهُ وَمَن فِي الْأَرْضِ جَمِيعًا﴾.

وكان عقاب الله لهم ﴿وَمِنَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّا نَصَارَىٰ أَخَذْنَا مِيثَاقَهُمْ فَنَسُوا حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا بِهِ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ الْعَدَاوَةَ وَالْبَغْضَاءَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ اللَّهُ بِمَا كَانُوا يَصْنَعُونَ﴾، وهذا ظاهر عند من يتأمل تاريخ النصارى، فكم من الحروب التي نشأت بين فرنسا وبريطانيا وحرب المئة عام بينهما ما زالت محفورة في صفحات التاريخ، وقد دامت ١١٦ سنة مِنْ ١٣٣٧ إلى ١٤٥٣ م، والحرب الأهلية في أسبانيا حصدت ٥٠٠,٠٠٠ قتيل ما بين 1939-1936م ، والحرب الروسية الأهلية حيث هلك فيها ١٣,٠٠٠,٠٠٠ إنسان ما بين 1921- 1917م ، وغيرها كثير.

وذكر الله قصة عيسى؛ في آخر السورة مذكراً بنعمته عليه فقال : ﴿إِذْ قَالَ اللَّهُ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ اذْكُرْ نِعْمَتِي عَلَيْكَ وَعَلَىٰ وَالِدَتِكَ إِذْ أَيَّدتُّكَ بِرُوحِ الْقُدُسِ تُكَلِّمُ النَّاسَ فِي الْمَهْدِ وَكَهْلًا ۖ وَإِذْ عَلَّمْتُكَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَالتَّوْرَاةَ وَالْإِنجِيلَ ۖ وَإِذْ تَخْلُقُ مِنَ الطِّينِ كَهَيْئَةِ الطَّيْرِ بِإِذْنِي فَتَنفُخُ فِيهَا فَتَكُونُ طَيْرًا بِإِذْنِي ۖ وَتُبْرِئُ الْأَكْمَهَ وَالْأَبْرَصَ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ تُخْرِجُ الْمَوْتَىٰ بِإِذْنِي ۖ وَإِذْ كَفَفْتُ بَنِي إِسْرَائِيلَ عَنكَ إِذْ جِئْتَهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ إِنْ هَٰذَا إِلَّا سِحْرٌ مُّبِينٌ ﴿١١٠﴾ وَإِذْ أَوْحَيْتُ إِلَى الْحَوَارِيِّينَ أَنْ آمِنُوا بِي وَبِرَسُولِي قَالُوا آمَنَّا وَاشْهَدْ بِأَنَّنَا مُسْلِمُونَ ﴿١١١﴾﴾[١١٠-١١١].

وهؤلاء الحواريون هم من آمن بعيسى؛ من دون تردد وكانوا من خاصته وأقرب الناس إليه؛ ولذا فقوله تعالى عنهم: (إِذْ قَالَ الْحَوَارِيُّونَ يَا عِيسَى ابْنَ مَرْيَمَ هَلْ يَسْتَطِيعُ رَبُّكَ أَنْ يُنَزِّلَ عَلَيْنَا مَائِدَةً مِنَ السَّمَاءِ) لا يراد به الشك في قدرة ربهم وحاشهم، وإنما مقصودهم : **هل يطيعك ربك إذا سألته ذلك؟ ومثله قول القائل: (هل يستجيب) أو (هل يجيب) فهما بمعنى**

واحد[1]؛ ولذا ذهب جمهور السلف وأكثر الصحابة وغيرهم إلى غير هذا القراءة، فقرأ علي بن أبي طالب ومعاذ بن جبل وابن عباس وعائشة وسعيد بن جبير (هل تستطيع ربك) بالتاء ونصب الباء من ربك، والمعنى: هل تستطيع أن تسأل ربك؟

قالت عائشة: كان الحواريون أعرف بالله من أن يقولوا (هل يستطيع ربك) .

قال القاضي أبو محمد ابن عطية: نزهتهم عائشة عن بشاعة اللفظ، وقرأ جمهور الناس (هل يستطيع ربك) بالياء ورفع الباء من ربك، وهي قراءة السبعة حاشا الكسائي[2]، وهذا ليس لأنهم شكّوا في قدرة الله على هذا الأمر، بل بمعنى هل يفعل الله تعالى هذا ؟ وهل تقع منه إجابة إليك ؟ وهذا كما قال لعبد الله بن زيد: هل تستطيع أن تريني كيف كان رسول الله ﷺ يتوضأ ؟ فالمعنى هل تريني ؟

أما قول عيسى: (اتقوا الله إن كنتم مؤمنين) فنصيحة لهم : إن كنتم مؤمنين فيكفيكم إيمانكم، ولا تطلبوا هذا الطلب. قال ابن كثير: أي فأجابهم المسيح عليه السلام قائلاً لهم: اتقوا الله ولا تسألوا هذا فعساه أن يكون فتنة لكم، وتوكلوا على الله في طلب الرزق أن كنتم مؤمنين[3]. ﴿قَالُواْ نُرِيدُ أَن نَّأْكُلَ مِنْهَا وَتَطْمَئِنَّ قُلُوبُنَا وَنَعْلَمَ أَن قَدْ صَدَقْتَنَا وَنَكُونَ عَلَيْهَا مِنَ ٱلشَّٰهِدِينَ﴾[١١٣]، وهذا كما قال إبراهيم الخليل لربه: ﴿وَإِذْ قَالَ إِبْرَٰهِـۧمُ رَبِّ أَرِنِي كَيْفَ تُحْيِ ٱلْمَوْتَىٰ ۖ قَالَ أَوَلَمْ تُؤْمِن ۖ قَالَ بَلَىٰ وَلَٰكِن لِّيَطْمَئِنَّ قَلْبِي﴾ [البقرة:٢٦٠].

وهنا دعا عيسى ربه ﴿قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ٱللَّهُمَّ رَبَّنَآ أَنزِلْ عَلَيْنَا مَآئِدَةً مِّنَ ٱلسَّمَآءِ تَكُونُ لَنَا عِيدًا لِّأَوَّلِنَا وَءَاخِرِنَا وَءَايَةً مِّنكَ ۖ وَٱرْزُقْنَا وَأَنتَ خَيْرُ ٱلرَّٰزِقِينَ﴾[١١٤]، فاستجاب الله واتبع ذلك بأشدّ وعيد على ميثاق ورد في هذه السورة الطويلة العظيمة﴿قَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّيٓ أُعَذِّبُهُۥ عَذَابًا لَّآ أُعَذِّبُهُۥٓ أَحَدًا مِّنَ ٱلْعَٰلَمِينَ﴾[١١٥]

(١) ينظر : معالم التنزيل (٢/١٠١).

(٢) المحرر الوجيز(٢/٢٦٠).

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٢٥).

خامساً : نداءات سورة المائدة

وهذا من خصائصها، **فهي أكثر سورة في القرآن جاء فيها النداء بـ "يا أيها الذين آمنوا"، فقد تكرر فيها هذا النداء(١٦) مرة من أصل (٨٩) في جميع القرآن.**

وهذه النداءات تلخص المواثيق بين الله وعباده المؤمنين الواردة في هذه السورة العظيمة ، وهي مواثيق تتعلق بما يلي:

ميثاق الذبائح، والأنكحة، ميثاق الدخول في النسك، الطهارة للصلاة، العدل، الثبات وعدم الارتداد، شكر النعمة، ميثاق الولاء والبراء، كفارة اليمين، عدم كتم الشهادة، تحريم الغلو، الصبر عند الابتلاء، السمع والطاعة.

ودونك هذا العرض لهذه النداءات في " المائدة":

النداء الأول : ميثاق الإقرار أن الحكم بالتحليل والتحريم لله وحده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَوۡفُواْ بِٱلۡعُقُودِۚ أُحِلَّتۡ لَكُم بَهِيمَةُ ٱلۡأَنۡعَٰمِ إِلَّا مَا يُتۡلَىٰ عَلَيۡكُمۡ غَيۡرَ مُحِلِّي ٱلصَّيۡدِ وَأَنتُمۡ حُرُمٌۗ إِنَّ ٱللَّهَ يَحۡكُمُ مَا يُرِيدُ﴾[١] ، وهذا الميثاق ظاهر من قوله (أَوْفُواْ) ثم (أُحِلَّتْ).

النداء الثاني: ميثاق التعاون على البر والتقوى دون ضده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تُحِلُّواْ شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهۡرَ ٱلۡحَرَامَ وَلَا ٱلۡهَدۡيَ وَلَا ٱلۡقَلَٰٓئِدَ وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلۡبَيۡتَ ٱلۡحَرَامَ يَبۡتَغُونَ فَضۡلٗا مِّن رَّبِّهِمۡ وَرِضۡوَٰنٗاۚ وَإِذَا حَلَلۡتُمۡ فَٱصۡطَادُواْۚ وَلَا يَجۡرِمَنَّكُمۡ شَنَـَٔانُ قَوۡمٍ أَن صَدُّوكُمۡ عَنِ ٱلۡمَسۡجِدِ ٱلۡحَرَامِ أَن تَعۡتَدُواْۘ وَتَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡبِرِّ وَٱلتَّقۡوَىٰۖ وَلَا تَعَاوَنُواْ عَلَى ٱلۡإِثۡمِ وَٱلۡعُدۡوَٰنِۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلۡعِقَابِ﴾[٢].

النداء الثالث: ميثاق السمع والطاعة بين الرب وعبيده.

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا قُمۡتُمۡ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ فَٱغۡسِلُواْ وُجُوهَكُمۡ وَأَيۡدِيَكُمۡ إِلَى ٱلۡمَرَافِقِ﴾[٦]، بعدها مباشرة قال سبحانه ﴿وَٱذۡكُرُواْ نِعۡمَةَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ وَمِيثَٰقَهُ ٱلَّذِي وَاثَقَكُم بِهِۦٓ إِذۡ قُلۡتُمۡ سَمِعۡنَا وَأَطَعۡنَاۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمُۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٧]

النداء الرابع : ميثاق العدل مع جميع الخلق حبيبهم وبغيظهم.

﴿ياأيها الذين آمنوا كونوا قوامين لله شهداء بالقسط ولا يجرمنكم شنآن قوم على ألا تعدلوا اعدلوا هو أقرب للتقوى واتقوا الله إن الله خبير بما تعملون﴾ ٨.

النداء الخامس : ميثاق شكر المنعم وذكر نعمائه.

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱذۡكُرُواْ نِعۡمَتَ ٱللَّهِ عَلَيۡكُمۡ إِذۡ هَمَّ قَوۡمٌ أَن يَبۡسُطُوٓاْ إِلَيۡكُمۡ أَيۡدِيَهُمۡ فَكَفَّ أَيۡدِيَهُمۡ عَنكُمۡۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلۡيَتَوَكَّلِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ﴾ [١١]، جاء بعده مباشرة نموذج لمن نقض العهود بكفر النعمة وعدم شكرها﴿وَلَقَدۡ أَخَذَ ٱللَّهُ مِيثَـٰقَ بَنِيٓ إِسۡرَـٰٓءِيلَ وَبَعَثۡنَا مِنۡهُمُ ٱثۡنَيۡ عَشَرَ نَقِيبٗاۖ وَقَالَ ٱللَّهُ إِنِّي مَعَكُمۡۖ لَئِنۡ أَقَمۡتُمُ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَيۡتُمُ ٱلزَّكَوٰةَ وَءَامَنتُم بِرُسُلِي وَعَزَّرۡتُمُوهُمۡ وَأَقۡرَضۡتُمُ ٱللَّهَ قَرۡضًا حَسَنٗا لَّأُكَفِّرَنَّ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَلَأُدۡخِلَنَّكُمۡ جَنَّـٰتٖ تَجۡرِي مِن تَحۡتِهَا ٱلۡأَنۡهَٰرُۚ فَمَن كَفَرَ بَعۡدَ ذَٰلِكَ مِنكُمۡ فَقَدۡ ضَلَّ سَوَآءَ ٱلسَّبِيلِ ﴿١٢﴾ فَبِمَا نَقۡضِهِم مِّيثَـٰقَهُمۡ لَعَنَّـٰهُمۡ وَجَعَلۡنَا قُلُوبَهُمۡ قَٰسِيَةٗ﴾[١٢-١٣].

النداء السادس: ميثاق السعي إليه وابتغاء القرب منه

﴿ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَٱبۡتَغُوٓاْ إِلَيۡهِ ٱلۡوَسِيلَةَ وَجَٰهِدُواْ فِي سَبِيلِهِۦ لَعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ ﴾[٣٥]، ونقل ابن كثير عن ابن عباس -رضي الله عنهما- أن: "معنى الوسيلة فيها القربة، ونقل مثل ذلك عن مجاهد والحسن وعبد الله بن كثير والسدي وابن زيد وغير واحد، وقال قتادة: "أي تقربوا إليه بطاعته، والعمل بما يرضيه" ثم قال ابن كثير: وهذا الذي قاله هؤلاء الأئمة لا خلاف بين المفسرين فيه"(١).

---

(١) تفسير القرآن العظيم(٣/١٠٣).

النداء السابع والثامن والتاسع: في التحذير من نقض ميثاق الله بموالاة أعداء الله مهما كانت الأعذار.

والعجب أن يتكرر النداء بالإيمان في ثلاث آيات متقاربات لمعنى واحد.

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ﴾ [٥١-٥٣].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾ إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾﴾ [٥٤-٥٦].

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [٥٧].

وهذه الآيات هي ميثاق الولاء لله وللمؤمنين والبراء من الكفر والكافرين، وأشد آية فيها هي قوله: (وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)، فإن ظاهرها أن ينتقل بالتولي من حزب المؤمنين ليكون في حزب الكافرين.

وهذه الآيات السابقة من المائدة هي أطول آي القرآن تفصيلا لأحكام الموالاة للمشركين بعد الممتحنة، فلعنا نفصل الكلام على مسألة موالاة الكافرين ومراتبها وأحكامها هنا، والله وحده المستعان وعليه التكلان سبحانه.

مسألة : حكم الموالاة والتولي للكافرين ومظاهرتهم على المسلمين

جاءت الممتحنة كأصل في هذا الباب فهذا الموضوع هو مقصودها، وجاء أيضاً ذكر أحكام الموالاة في سورة براءة وآل عمران والنساء والمجادلة.

ففي سورة التوبة قال تعالى: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُوٓاْ ءَابَآءَكُمۡ وَإِخۡوَٰنَكُمۡ أَوۡلِيَآءَ إِنِ ٱسۡتَحَبُّواْ ٱلۡكُفۡرَ عَلَى ٱلۡإِيمَٰنِۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴾ [التوبة:٢٣].

وقد جاء بيان حكم هذه المسألة بلفظ (أولياء) كثيرا في آل عمران والنساء والمائدة والممتحنة، وجاء لفظ (يوادون) في آية المجادلة، ولفظ (المودة) في آية الممتحنة، ولفظ (يَتَوَلَّهُمْ) في آية المائدة، وهذه آياتها في كتاب الله:

قال تعالى في النساء:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۚ أَتُرِيدُونَ أَن تَجۡعَلُواْ لِلَّهِ عَلَيۡكُمۡ سُلۡطَٰنٗا مُّبِينًا ﴾ [النساء:١٤٤].

وقال في آل عمران:﴿لَّا يَتَّخِذِ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلۡكَٰفِرِينَ أَوۡلِيَآءَ مِن دُونِ ٱلۡمُؤۡمِنِينَۖ وَمَن يَفۡعَلۡ ذَٰلِكَ فَلَيۡسَ مِنَ ٱللَّهِ فِي شَيۡءٍ إِلَّآ أَن تَتَّقُواْ مِنۡهُمۡ تُقَىٰةٗ ﴾[آل عمران:٢٨].

وقال سبحانه في المائدة: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلۡيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوۡلِيَآءَۘ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلِيَآءُ بَعۡضٖۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمۡ فَإِنَّهُۥ مِنۡهُمۡۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهۡدِي ٱلۡقَوۡمَ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴾ [٥١].

وقوله سبحانه وتعالى في المجادلة: ﴿لَّا تَجِدُ قَوۡمٗا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ يُوَآدُّونَ مَنۡ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ﴾[المجادلة:٢٢].

وقال تعالى في الممتحنة:﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمۡ أَوۡلِيَآءَ تُلۡقُونَ إِلَيۡهِم بِٱلۡمَوَدَّةِ وَقَدۡ كَفَرُواْ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ ٱلۡحَقِّ ﴾[الممتحنة:١].

وأشد ما جاء من الوعيد في هذه الآيات هي آية المائدة (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)، وجاء معها لفظ التولي (يتولهم منكم)، بخلاف ما عداها فاللفظ هو (أولياء) والوعيد فيها دون ما جاء هذه الآية.

ومن هنا ذهب جمع من العلماء المتأخرين خصوصاً من أئمة الدعوة النجدية إلى التفريق

بين الموالاة والتولي، فالأولى كبيرة وهي مطلق الموالاة، والثانية ردة وهي مناصرتهم ومظاهرتهم على المسلمين[1]، ومع أن اللفظ القرآني يساعد على هذا التفريق لكن كل من فسر هذه الآية ممن تقدم من أهل العلم ممن وقفت على كلامهم لم يحفلوا بهذا التفريق بل تحدثوا عن (الموالاة) وأنواعها وأحكامها وأن منها ما هو كفر ومنها ما هو دون ذلك، وممن نصر عدم التفريق من المتأخرين العلامة عبدالرحمن بن سعدي في تفسيره[2]، والأمر يسير فالخلاف اصطلاحي لا أكثر.

وأصل الموالاة في معناها اللغوي: هو القُرْب والدُّنُو، وتعني التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا، لمن يتخذه الإنسان ولياً.

فإن كان هذا التقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا، مقصوداً به الله ورسوله والمؤمنين، فهي الموالاة الشرعية الواجبة على كل مسلم، وإن كان المقصود بالتقرب وإظهار الود بالأقوال والأفعال والنوايا، هم الكفار، على اختلاف أجناسهم، فهي موالاة كفر ورده أو إثماً وفسقاً بحسب درجته.

وأصل الموالاة: الحب، وأصل المعاداة، البغض، وينشأ عنهما من أعمال القلب والجوارح ما يدخل في حقيقة الموالاة والمعاداة: كالنصرة والأنس، والمعاونة والجهاد، والهجرة ونحو ذلك من الأعمال.

وحقيقة الموالاة تدور على ثلاثة أقسام:

الحب، والنصرة، والاتباع، ودليل ذلك ما يأتي:

١. موالاة الحب والمودة، قال تعالى: ﴿لَا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ يُوَادُّونَ مَنْ حَادَّ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَلَوْ كَانُوا آبَاءَهُمْ أَوْ أَبْنَاءَهُمْ أَوْ إِخْوَانَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُمْ بِرُوحٍ مِنْهُ﴾[المجادلة:٢٢].

وكما في قوله تعالى:﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تَتَّخِذُوا آبَاءَكُمْ وَإِخْوَانَكُمْ أَوْلِيَاءَ إِنِ اسْتَحَبُّوا الْكُفْرَ عَلَى الْإِيمَانِ وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِنْ كَانَ

(١) ينظر: الدرر السنية (١٥/٤٧٩).

(٢) تيسير الكريم الرحمن (١ / ٨٥٦).

ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ﴾[التوبة:٢٣-٢٤]؛ فجعل سبحانه محبة الكفار تولياً لهم فالمودة والمحبة من صور الموالاة.

٢. ولاء النصرة، قال الله تعالى: ﴿وَمَا كَانَ لَهُم مِّنْ أَوْلِيَآءَ يَنصُرُونَهُم مِّن دُونِ ٱللَّهِ﴾[الشورى:٤٦]، فدلّت الآية على أن النصرة موالاة، وقوله تعالى:﴿أَنتَ مَوْلَىٰنَا فَٱنصُرْنَا عَلَى ٱلْقَوْمِ ٱلْكَٰفِرِينَ﴾[البقرة:٢٨٦]، وقوله تعالى: (واعتصموا بالله هو مولاكم فنعم المولى ونعم النصير) الحج ٧٨.

فهذه الآيات ظاهرة في الدلالة على التلازم بين الموالاة والنصرة.

٣. ولاء الطاعة والاتباع: ومنه قوله تعالى:﴿وَمَن يُشَاقِقِ ٱلرَّسُولَ مِنۢ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ ٱلْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ ٱلْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِۦ مَا تَوَلَّىٰ﴾ [النساء:١١٥]؛ فبيّن أن اتباع غير سبيل المؤمنين هو من التولّي (نولّه ما تولّى)، وقوله تعالى: ﴿ٱتَّبِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ مِن دُونِهِۦٓ أَوْلِيَآءَ﴾[الأعراف:٣]، ومما يدل أيضا على أن الموالاة تعني المتابعة: قوله تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يُجَٰدِلُ فِى ٱللَّهِ بِغَيْرِ عِلْمٍ وَيَتَّبِعُ كُلَّ شَيْطَٰنٍ مَّرِيدٍ ۝٣ كُتِبَ عَلَيْهِ أَنَّهُۥ مَن تَوَلَّاهُ فَأَنَّهُۥ يُضِلُّهُۥ﴾[الحج:٣-٤].

وذهب عامة أهل العلم أن الموالاة تنقسم إلى قسمين، هما:

موالاة كبرى مكفرة، وموالاة صغرى مفسقة.

أما من زعم أن الموالاة كلها مكفرة وردة عن الإسلام واستدل على ذلك بآية المائدة (وَمَنْ يَتَوَلَّهُمْ مِنْكُمْ فَإِنَّهُ مِنْهُمْ)، وقال هذا نص محكم يفيد ردة كل من بدر منه أي موالاة، فليس بصحيح، وقد قال النبي ﷺ: "**من تشبه بقوم فهو منهم**"[1] ولم يقل أحد من أهل العلم بأن كل تشبه كفر، ثم يرده قول الله تعالى في شأن حاطب بن أبي بلتعة رضي الله عنه في مطلع الممتحنة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ عَدُوِّى وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِٱلْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا۟ بِمَا جَآءَكُم مِّنَ

(١) أبو داود ح(٤٠٣١)، أحمد ح(٥١١٤).

﴿ٱلْحَقِّ﴾[الممتحنة:١]، فناداه باسم الإيمان مع إثبات حصول الموالاة والمودة منه لكفار قريش، فهو سبب نزول الآية ودخوله فيها قطعي.

ويدل عليه أيضاً أن الجاسوس الذي يجس للكافرين على المؤمنين ويكشف عورات وثغرات أهل الإسلام في حربهم مع الكفار وهذا من أظهر صور التولي عند عامة أهل العلم في المذاهب الأربعة، وغيرها ليس بمرتد، وحكى الإجماع على عدم ردته الطحاوي[1]، وقريبٌ منه قول الإمام ابن بطال -رحمه الله-: "ومن قال بقتل الجاسوس المسلم فقد خالف الحديث وأقوال المتقدمين من العلماء، فلا وجه لقوله[2] ".

ولكن لا إجماع، فقد نص ابن وهب من المالكية على ردته حكاه عنه ابن عاشور في تفسيره ثم قال بعد نقله: وهو قول ضعيف من جهة النظر[3]. وضعفه من جهة النقل أشد.

وعند عامة الفقهاء إن قتل فلا يقتل ردةً بل تعزيراً، مع أن ما حصل منه موالاة عند الجميع بلا ريب، إلا عند بعض التكفيرين المتحذلقين شرق بهذا الاتفاق ولم يجد سبيلا لرده، فقال: الجاسوس ليس مظاهراً !!!، وهذه وربي مكابرة صلعاء فجحاء.

ومن زعم أن حاطب بن أبي بلتعة في قصته المشهورة المخرجة في الصحيحين وغيرهما قد وقع منه الكفر لكن النبي ﷺ لم يكفره بسبب التأويل، فقوله هذا شاذ، ويكفي في بيان شذوذه أن الأئمة الأربعة وكذا ابن حزم[4] وابن تيمية قد نصوا على أن عمر ﷺ أخطأ في تكفير حاطب ﷺ، وغيرهم كثير من أهل العلم، كذلك لم يجعلوا فعل حاطب كفراً، بل بنوا على قصة حاطب حكم الجاسوس وأنه لا يكفر كما سيأتي في كلام الشافعي، يقول ابن تيمية في مجموع الفتاوى:".. وقد تحصل للرجل موادتهم لرحم أو حاجة فتكون ذنبًا ينقص به إيمانه، ولا يكون به كافرًا، كما حصل من حاطب بن أبي بَلْتَعَة، لما كاتب المشركين ببعض أخبار النبي ﷺ، وأنزل الله فيه ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَآءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم

---

(١) فتح الباري شرح صحيح البخاري (١٢/ ٣١٠).

(٢) شرح صحيح البخاري لابن بطال (٥/ ١٦٤).

(٣) التحرير والتنوير(٣/٢١٩).

(٤) الأحكام لابن حزم (٢ / ١٩٦).

﴿بِالْمَوَدَّةِ﴾ [الممتحنة:١]"[1]

ومن تتبع كلام الأئمة الأعلام من محققي أهل العلم في العصور المتقدمة لم نجدهم يختلفون في هذا.

وأقوى ما يستدلون به أن عمر قال: (يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ خانَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ وَالْمُؤْمِنِينَ) وقال: (دَعْنِي أَضْرِبْ عُنُقَ هَذَا الْمُنَافِقِ)[2] وفي لفظ (فَإِنَّهُ قَدْ كَفَرَ).[3]

وهذه الألفاظ حملها أكثر أهل العلم على أن عمر كفّر حاطبا كما نص عليه ابن تيمية[4]، وقد يقال: لا تدل على الكفر الأكبر، فقد قيلت في غير حاطب من الصحابة، فقال أسيد لسعد بن عبادة: أنت منافق. ولم يرد النفاق الأكبر يقيناً، وقال الله في شأن أبي لبابة بن عبد المنذر ﷺ ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمْ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ﴾ [الأنفال:٢٧]، في قصة مشهورة عند أئمة المفسرين بالأثر أخرجها سعيد بن منصور وابن جرير وابن المنذر وابن أبي حاتم وأبو الشيخ عن عبد الله بن قتادة ﷺ قال: نزلت هذه الآية (لا تخونوا الله والرسول) في أبي لبابة بن عبد المنذر، سألوه يوم قريظة ما هذا الأمر؟ فأشار إلى حلقه أنه الذبح فنزلت، قال أبو لبابة ﷺ: ما زالت قدماي حتى علمت أني خنت الله ورسوله. وقال الحافظ في " الفتح "[5]: "و سنده حسن"، وفي إسنادها ضعف، ولكن حتى مع ضعف إسنادها فلم يستنكر أحد من أهل العلم متنها بل تناقلها أئمة التفسير بالمأثور، ولو كانت المظاهرة بأدنى إشارة كفر متفق عليه لكن متنها منكر يجب التنبيه على نكارته. وفعل أبي لبابة من الموالاة العملية للكفار على المسلمين، وهي خيانة بنص القرآن ولم يُكفَّر بها وفيا نزلت آية الأنفال السابقة، وقد خوطب بنداء الإيمان.

---

(١) مجموع الفتاوى (٥٢٣/٧).

(٢) البخاري ح(٦٩٣٩، أحمد ح(٨٢٧).

(٣) الحاكم ح(٦٩٦٦).

(٤) مجموع الفتاوى (٥٢٣/٧).

(٥) (١١ / ٤٣).

فالموالاة على نوعين :

النوع الأول : موالاة كبرى ، صاحبها مرتد عن دين الإسلام، ولها صورتان:

أ . أن يوالي الكفار محبة لهم ورغبة في نصرة دينهم وعلوهم على المسلمين، فهذا مرتد بالإجماع، وأدلة ذلك كثيرة من الكتاب والسنة، كما قال تعالى: ﴿فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ لَا انفِصَامَ لَهَا﴾[البقرة:٢٥٦]، ومن يحب الكفر ويفرح بانتصاره على الإسلام، لم يكفر بالطاغوت، وقال تعالى:﴿لَّا يَتَّخِذِ الْمُؤْمِنُونَ الْكَافِرِينَ أَوْلِيَاءَ مِن دُونِ الْمُؤْمِنِينَ ۖ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ فَلَيْسَ مِنَ اللَّهِ فِي شَيْءٍ إِلَّا أَن تَتَّقُوا مِنْهُمْ تُقَاةً ۗ وَيُحَذِّرُكُمُ اللَّهُ نَفْسَهُ ۗ وَإِلَى اللَّهِ الْمَصِيرُ﴾[آل عمران:٢٨]، وقد روى البراء بن عازب قال: قال النبي ﷺ: "**أوثق عرى الإيمان الحب في الله والبغض في الله**"[١] وقال رسول الله ﷺ: "**لا تصاحب إلا مؤمنا ولا يأكل طعامك إلا تقي** "[٢].

ب . أن يكون في صف المشركين يقاتل معهم المسلمين وهو يدعي الإسلام ومحبته لكن حمله حبّ الدنيا على فعلته المنكرة، وهذه أظهر صور الموالاة العملية، وسواء قيل بردته أو لا فحكمه عند الجميع القتل إن لم يكن لأجل ردته فدفعاً لبغيه وعدوانه.

وسئلت لجنة الفتوى في الأزهر عن مساعدة اليهود وإعانتهم في تحقيق مآربهم في فلسطين، فأجابت اللجنة برئاسة الشيخ عبدالمجيد سليم في ١٤ شعبان ١٣٦٦ إجابة طويلة، ومما قالوا:

"فالرجل الذي يحسب نفسه من جماعة المسلمين إذا أعان أعداءهم في شيء من هذه الآثام المنكرة وساعد عليها مباشرة أو بواسطة لا يعد من أهل الإيمان، ولا ينتظم في سلكهم، بل هو بصنيعه حرب عليهم، منخلع من دينهم، وهو بفعله الآثم أشد عداوة من المتظاهرين بالعداوة للإسلام والمسلمين".

إلى أن قالوا: "ولا يشك مسلم أيضًا أن من يفعل شيئًا من ذلك، فليس من الله ولا رسوله ولا المسلمين في شيء، والإسلام والمسلمون براء منه، وهو بفعله قد دلّ على أن قلبه لم يمسه

---

(١) أحمد ح(١٨٥٢٤).

(٢) رواه أبو داود ح(٤٨٣٢) ، الترمذي ح(٢٣٩٥)، وصححه الألباني.

شيء من الإيمان ولا محبة الأوطان، والذي يستبيح شيئًا من هذا بعد أن استبان له حكم الله فيه يكون مرتدًا عن دين الإسلام، فيفرق بينه وبين زوجه، ويحرم عليها الاتصال به، ولا يصلى عليه ولا يدفن في مقابر المسلمين، وعلى المسلمين أن يقاطعوه، فلا يسلموا عليه، ولا يعودوه إذا مرض، ولا يشيعوا جنازته إذا مات حتى يفيء إلى أمر الله، ويتوب توبة يظهر أثرها في نفسه وأحواله وأقواله وأفعاله".

وهذا المسألة وهي الموالاة العملية إن قصد منها صاحبها حظا من الدنيا فقط لا حبا لملة الكفر؛ هل هي كفر أكبر أو لا؟

فيها مؤلفات طافحة من الفريقين وسجال طويل من الطرفين، وأنا أميل . والعلم عند الله . إلى ردة من قاتل مع الكفار ضد المؤمنين، أما ما دون ذلك من فعل الجاسوس وما دونه من المكاتبة والكلمة والإشارة ونحوها، ففاعلها ليس بمرتد وأدلة ذلك ظاهرة جداً لمن تأمل النصوص وكلام أئمة العلم في تفسيرها واستنباط الأحكام منها، وأما القول الآخر بأنه مرتد فقول ضعيف.

النوع الثاني موالاة صغرى :

سميت صغرى تمييزا لها عن الكبرى وإلا فصاحبها مرتكب لكبيرة من الكبائر الموبقة لكن ليس بكافر.

وحدّها ما قاله الله تعالى في مطلع الممتحنة: (تلقون إليهم بالمودة)، أي: ترسلون إليهم بما يفيد مودتكم لهم وتقربكم منهم وتظهرون محبتكم لهم فوق محبة المؤمنين.

ويدخل في الموالاة الصغرى ما فعله حاطب في كتابته لقريش، وأبو لبابة حين أشار بيده نحو حلقه يخبر يهودا بما سيفعله بهم رسول الله ﷺ، ويدخل في ذلك الجاسوس الذي يجس للكافرين على المؤمنين كما سبق قريباً، وبعدم ردة الجاسوس استدل الأئمة بقصة حاطب رضي الله عنه.

قيل للشافعي[١]: أرأيت المسلم يكتب إلى المشركين من أهل الحرب بأن المسلمين يريدون غزوهم أو بالعورة من عوراتهم، هل يحل ذلك دمه ويكون في ذلك دلالة على ممالأة المشركين؟ قال الشافعي – رحمه الله تعالى-: "لا يحل دم من ثبتت له حرمة الإسلام إلا أن يقتل أو يزني

(١) الأم (٤/٢٤٩-٢٥٠).

بعد إحصان أو يكفر كفراً بيناً بعد إيمان، ثم يثبت على الكفر وليس الدلالة على عورة مسلم ولا تأييد كافر بأن يحذر أن المسلمين يريدون منه غرة ليحذرها أو يتقدم في نكاية المسلمين بكفر بين، فقلت للشافعي: أقلت هذا خبراً أم قياساً؟ قال: قلته بما لا يسع مسلماً علمه عندي أن يخالفه.. ".

وقد سئل العلامة الشيخ د.عبدالرحمن البراك هذا السؤال: أفيدك بأني قد قرأت كتابًا بعنوان: (مسائل العذر بالجهل) تحت إشراف فضيلتكم، وفهمت منه أن إعانة الكفار بالقتال معهم ضد المسلمين لا تكون كفراً، إلا بشرط الرغبة في إظهار دينهم، أو المحبة لدينهم، وعبَّر أن القتال مع الكفار ضد المسلمين -حمية ولمصالح دنيوية- ليس كفراً مخرجاً من الملة، فهل هذا الفهم صحيح؟ وهل قال به أحد من أهل السنة؟ وما رأي فضيلتكم في اشتراط ما ذُكِر أعلاه للحكم بتكفير من قاتل المسلمين مع الكافرين؟

الإجابة : الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله، وبعد:

فلا شك أن أسباب مظاهرة بعض الكافرين على بعض المسلمين تختلف، فتارة يكون الباعث بغض الإسلام وأهله، وتارة يكون عن رغبة في مصلحة أو رهبة من ضرر يلحق بهذا المظاهر، ومعلوم أنه لا يستوي من يحب الله ورسوله ودينه -ولكن حمله غرض من الأغراض على معاونة بعض الكفار على بعض المسلمين- لا يستوي هذا ومن يبغض الإسلام وأهله، **وليس هناك نصّ بلفظ المظاهرة أو المعاونة يدل على أن مطلق المعاونة ومطلق المظاهرة يوجب كفر من قام بشيء من ذلك لأحد من الكافرين.**

وهذا الجاسوس الذي يجس على المسلمين وإن تحتم قتله عقوبة، فإنه لا يكون بمجرد الجس مرتداً، ولا أدلّ على ذلك من قصة حاطب بن أبي بلتعة ﷺ فقد أرسل لقريش يخبرهم بمسير النبي ﷺ إليهم، ولما أطلع الله نبيه على ما حصل من حاطب، وعلى أمر المرأة التي حملت الكتاب عاتب النبيُّ ﷺ حاطباً على ذلك، فاعتذر بأنه ما حمله على ذلك إلا الرغبة في أن يكون ذلك يداً له عند قريش يحمون بها أهله وماله، فقبل النبي ﷺ عذره، ولم يأمره بتجديد إسلامه، وذكر ما جعل الله سبباً لمغفرة الله له، وهو شهوده بدراً[1].

(١) صحيح البخاري ح(٣٩٨٣)، وصحيح مسلم ح(٢٤٩٤).

وهذه مظاهرة أي مظاهرة، فإطلاق القول بأن مطلق المظاهرة -في أي حال من الأحوال- يكون ردة ليس بظاهر؛ فإن المظاهرة تتفاوت في قدرها ونوعها تفاوتاً كثيراً، وقوله تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَتَّخِذُواْ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّٰلِمِينَ﴾[٥١]، لا يدلّ على أن أي تولٍّ يوجب الكفر، فإن التولي على مراتب، كما أن التشبه بالكفار يتفاوت وقد جاء في الحديث: "**من تشبه بقوم فهو منهم**"(١)، ومعلوم أنه ليس كل تشبه يكون كفراً فكذلك التولي.

والحاصل أن ما ورد في الكتاب المسؤول عنه من التفصيل هو الصواب عندي. والله أعلم. أهـ كلام الشيخ البراك .

وأخلص من هذا بما يأتي:

١) أن المسلم إذا والى الكفار على المسلمين محبة للكفر وأهله، فهو مرتد إجماعاً.

٢) أن من والاهم **بالجس على المسلمين والدلالة على عوراتهم أو بما هو دون ذلك، فليس بمرتد بل مرتكب لكبيرة من كبائر الذنوب** وتحل عقوبته ولو بالقتل.

٣) **أن من زعم بأن من ظاهر الكفار على المسلمين بأدنى مظاهرة ولو بكلمة أو برسالة، فهو مرتد بإجماع أهل العلم، فزعمه هذا ليس بشيء وإن نُقل عن بعض الأكابر كشيخنا العلامة ابن باز -رحمه الله- بل لو نُقل الإجماع على أنه لايرتد بمجرد المظاهرة بالكلمة والإشارة ونحوها لكان أقرب للصواب**، فإنه لازم كل من لم يكفر الجاسوس، وهو قول الأئمة الأربعة وابن تيمية وابن القيم وغيرهم ممن لا يرون الجاسوس مرتدا بفعله.

وأكبر من خالف في هذا ابن جرير، فقد قال في تفسيره: "لا تتخذوا أيها المؤمنون الكفار ظهراً وأنصاراً توالونهم على دينهم وتظاهرونهم على المسلمين من دون المؤمنين، وتدلونهم على عوراتهم، فإنه من يفعل ذلك فليس من الله في شيء، يعني بذلك: فقد برىء من الله وبرىء الله منه بارتداده عن دينه ودخوله في الكفر"(٢).

---

(١)أحمد ح(٥٠٩٣)، وأبو داود ح(٤٠٣١).

(٢) جامع البيان (٥/٣١٥).

وكذا ابن حزم، لكن خلافه شاذ فقد كفَّر من عاش بين أظهر الكفار، فيقول في المحلى: قد علمنا أن من خرج عن دار الإسلام إلى دار الحرب فقد أبق عن الله تعالى، وعن إمام المسلمين وجماعتهم، ويبين هذا حديثه ﷺ أنه بريء من كل مسلم يقيم بين أظهر المشركين، وهو عليه السلام لا يبرأ إلا من كافر، قال تعالى: ﴿ وَٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ﴾[التوبة: ٧١].

قال أبو محمد: فصح بهذا أن من لحق بدار الكفر والحرب مختاراً محارباً لمن يليه من المسلمين، فهو بهذا الفعل **مرتد له أحكام المرتد كلها** من وجوب القتل عليه، متى قدر عليه، ومن إباحة ماله، وانفساخ نكاحه وغير ذلك لأن رسول الله ﷺ لم يبرأ من مسلم. وأما من فرّ إلى أرض الحرب لظلم خافه، ولم يحارب المسلمين، ولا أعانهم عليه، ولم يجد في المسلمين من يجيره فهذا لا شيء عليه؛ لأنه مضطر مكر[1]هـ

٤) من انتقل لصفوف الكافرين يقاتِل معهم المسلمين، فهذا يقتل كالمشركين بلا ريب.

٥) من خاف على نفسه أو دولته ففعل ما يصح أن تكون مظاهرة منه للكافرين على المسلمين دون طيب نفس منه بل هو كاره لذلك مجبر عليه ولم يجد عنه سبيلا، فهو داخل تحت قوله تعالى: ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلَّا مَا ٱضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ﴾، فهو بين أمرين أن يرفض فتكون المهلكة عليه وعلى أخيه، أو يقبل باستخدام أرضه وفضائه فيسلم هو دون أخيه، ولا سبيل له إلا هذا فهو كآكل الميتة، ولا يجوز له أن يظاهر إلا بقدر هذه الضرورة فإن أعان بما زاد عن هذا الحد فقد حكم بكفر فعله هذا خلق من أئمة الدين والعلم، ولم يبق بينه وبين الردة إلا بلوغ الحجة وإزالة الشبهة.

ثم ختم الله آية الموالاة في المائدة بقوله تعالى بكشف لبعض الأعذار المتكررة المموجة التي يعتذر بها من والى أعداء الله ومآل هذا الأعذار الكاذبة: ﴿ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾ وَيَقُولُ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقْسَمُوا۟ بِٱللَّهِ جَهْدَ أَيْمَٰنِهِمْ ۙ إِنَّهُمْ لَمَعَكُمْ ۚ حَبِطَتْ

---

(١) المحلى (١٣/١٣٨).

أَعْمَٰلُهُمْ فَأَصْبَحُوا۟ خَٰسِرِينَ ﴿٥٣﴾﴾ [٥٢-٥٣].

ثم بين أن من الموالاة ما يكون ردة صريحة عن الإيمان: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِۦ فَسَوْفَ يَأْتِى ٱللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُۥٓ أَذِلَّةٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى ٱلْكَٰفِرِينَ يُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لَآئِمٍ ۚ ذَٰلِكَ فَضْلُ ٱللَّهِ يُؤْتِيهِ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٥٤﴾﴾ [٥٤]، وهذا أعظم نقض يكون من العبد الفقير تجاه ميثاقه مع ربه الغني أن يرتد بعد إسلامه، عياذاً بالله، والردة هنا تكون بسبب تولي أعداء الله.

وأوضح القرآن الموالاة النافعة في الدنيا والآخرة ووصف أهلها بما يمايزهم عن غيرهم﴿إِنَّمَا وَلِيُّكُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ وَهُمْ رَٰكِعُونَ ﴿٥٥﴾ وَمَن يَتَوَلَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَإِنَّ حِزْبَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْغَٰلِبُونَ ﴿٥٦﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ دِينَكُمْ هُزُوًا وَلَعِبًا مِّنَ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلِكُمْ وَٱلْكُفَّارَ أَوْلِيَآءَ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾ [٥٥-٥٧].

النداء العاشر: في النهي عن الغلو وأنه من الاعتداء في الدين

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحَرِّمُوا۟ طَيِّبَٰتِ مَآ أَحَلَّ ٱللَّهُ لَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴾ [٨٧].

النداء الحادي عشر: في النهي عن الخمر وأخواتها

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾﴾ [٩٠-٩١].

النداء الثاني والثالث عشر: في أن النار حُفّت بالشهوات

ثبت في الحديث أنه ﷺ قال: «حُفّت الجنّةُ بالمكارِهِ، وحفّتِ النار بالشهوات» أخرجه مسلم، ومصداق ذلك في المائدة في قوله تعالى:

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَيَبْلُوَنَّكُمُ ٱللَّهُ بِشَىْءٍ مِّنَ ٱلصَّيْدِ تَنَالُهُۥٓ أَيْدِيكُمْ وَرِمَاحُكُمْ لِيَعْلَمَ ٱللَّهُ مَن يَخَافُهُۥ بِٱلْغَيْبِ

فَمَنِ اعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٩٤].

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَقْتُلُوا۟ ٱلصَّيْدَ وَأَنتُمْ حُرُمٌ ۚ وَمَن قَتَلَهُۥ مِنكُم مُّتَعَمِّدًا فَجَزَآءٌ مِّثْلُ مَا قَتَلَ مِنَ ٱلنَّعَمِ يَحْكُمُ بِهِۦ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ هَدْيًۢا بَٰلِغَ ٱلْكَعْبَةِ أَوْ كَفَّٰرَةٌ طَعَامُ مَسَٰكِينَ أَوْ عَدْلُ ذَٰلِكَ صِيَامًا لِّيَذُوقَ وَبَالَ أَمْرِهِۦ ۗ عَفَا ٱللَّهُ عَمَّا سَلَفَ ۚ وَمَنْ عَادَ فَيَنتَقِمُ ٱللَّهُ مِنْهُ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ ذُو ٱنتِقَامٍ ﴾[٩٥].

وعن علي بن أبي طالب : **الصبر مطية لا تكبو** .

والتخلق بالصبر ملاك فضائل الأخلاق كلها فإن الارتياض بالأخلاق الحميدة لا يخلو من حمل المرء نفسه على مخالفة شهوات كثيرة ، ففي مخالفتها تعب يقتضي الصبرَ عليه حتى تصير مكارم الأخلاق ملكة لمن راض نفسه عليها ، كما قال عمرو بن العاص :

إذا المرءُ لم يَترُكْ طعاماً يُحبُّه ... ولم يَنْهَ قلباً غاوياً حيثُ يمَّما

فيوشِك أن تُلفَى له الدَّهرَ سُبَّةٌ ... إذا ذُكِرَتْ أمثالُها تَملأُ الفَمَا

النداء الرابع عشر: في ترك التكلف والسؤال عما لا حاجة إليه

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَسْـَٔلُوا۟ عَنْ أَشْيَآءَ إِن تُبْدَ لَكُمْ تَسُؤْكُمْ وَإِن تَسْـَٔلُوا۟ عَنْهَا حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ تُبْدَ لَكُمْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهَا ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٠١﴾ قَدْ سَأَلَهَا قَوْمٌ مِّن قَبْلِكُمْ ثُمَّ أَصْبَحُوا۟ بِهَا كَٰفِرِينَ ﴿١٠٢﴾ ﴾[١٠١-١٠٢].

في الصحيحين عن أنس بن مالك: أن رسول الله ﷺ سألوه حتى أحفوه بالمسألة، فخرج عليهم ذات يوم فصعد المنبر، فقال: "**لا تسألوا اليوم عن شيء إلا بينته لكم**". فأشفق أصحاب رسول الله ﷺ أن يكون بين يدي أمر قد حَضَر، فجعلت لا ألتفت يمينًا ولا شمالاً إلا وجدت كلاً لافاً رأسه في ثوبه يبكي، فأنشأ رجل كان يُلاحي فيدعى إلى غير أبيه، فقال: يا نبي الله، من أبي؟ قال: "أبوك حذافة". قال: ثم قام عمر فقال: رضينا بالله ربًا، وبالإسلام دينًا، وبمحمد رسولا عائذًا بالله من شر الفتن قال: وقال رسول الله ﷺ: "**لم أر في الخير والشر كاليوم قط، صورت لي الجنة والنار حتى رأيتهما دون الحائط**"[1].

(١) البخاري ح(٧٠٨٩)، مسلم ح(٢٣٥٩).

وقوله تعالى: (إن تبد لكم تسؤكم) يكون في جواب سؤالكم ما يسوؤكم كأن يسأل رجل عن أبيه فيُنسب إلى غير من عُرف به، أو أين أنا؟ فيقال في النار، أو كما سأل رجل عن الحج: أكل عام يا رسول الله؟ فسكت، حتى قالها ثلاثًا، فقال النبي صلى الله عليه وآله وسلم: "**لو قلت نعم لوجبت ولما استطعتم**"[1].

(وإن تسألوا عنها حين ينزل القرآن تبد لكم)، أي: إن أبيتم إلا السؤال عنها ستبين لكم حين ينزل القرآن، وقوله ﴿حِينَ يُنَزَّلُ ٱلْقُرْءَانُ﴾[١٠١] ظرف متعلق بفعل جواب الشرط وهو ﴿تبد لكم﴾، وليس بفعل الشرط (تسألوا)؛ لأن حين نزول القرآن هو وقت للجواب لا للسؤال، وتقديم الظرف (حين) على عامله (تبد لكم) للاهتمام.

النداء الخامس عشر: ما الحكم إذا لم يُسمع لناصح ؟

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ عَلَيۡكُمۡ أَنفُسَكُمۡۖ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا ٱهۡتَدَيۡتُمۡۚ إِلَى ٱللَّهِ مَرۡجِعُكُمۡ جَمِيعٗا فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمۡ تَعۡمَلُونَ ﴾[١٠٥].

روى ابن جرير عن جبير بن نفير قال: كنت في حلقة فيها أصحابُ رسول الله ﷺ، وإنّي لأصغر القوم، فتذاكروا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقلت أنا: أليس الله يقول في كتابه :"يا أيها الذين آمنوا عليكم أنفسكم لا يضركم من ضلّ إذا اهتديتم"؟ فأقبلوا عليَّ بلسان واحد، وقالوا: أتنتزِع بآية من القرآن لا تعرفها، ولا تدري ما تأويلها!! حتى تمنيت أني لم أكن تكلمت. ثم أقبلوا يتحدثون، فلما حضر قيامهم قالوا: "إنك غلام حدَثُ السن، وإنك نزعت بآية لا تدري ما هي، وعسى أن تدرك ذلك الزمان، إذا رأيت شحًّا مطاعًا، وهوًى متبعًا وإعجابَ كل ذي رأي برأيه، فعليك بنفسك، لا يضرك من ضل إذا اهتديت[2].

وهذا المعنى جاء عن ابن مسعود[3] وابن عمر[4]وغيرهما وهو أنه في زمن عدم سماع نصح الناصح فلا عليك بالناس والزم خاصة نفسك.

---

(١) مسلم ح(١٣٣٧)، أحمد ح(١٠٦٠٧).

(٢) جامع البيان (١١/١٤٢-١٤٣).

(٣) جامع البيان (٩/٤٦).

(٤) جامع البيان (٩/٤٤).

وللآية معنى آخر صحيح، كما قال سعيد بن المسيب: "إذا أمرت بالمعروف ونهيت عن المنكر، فلا يضرك من ضل إذا اهتديت "وروي عن حذيفة[1]، وكذا قال غير واحد من السلف.

وكلا المعنيين صحيح؛ وقد جمعهما أبو ثعلبة الخشني ﷺ حين سئل كيف نصنع في هذه الآية؟ فقال: أية آية؟ قلت: قوله تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَيْكُمْ أَنفُسَكُمْ لَا يَضُرُّكُم مَّن ضَلَّ إِذَا اهْتَدَيْتُمْ﴾ [١٠٥]، فقال: أما والله لقد سألت عنها خبيراً، سألت عنها رسول الله ﷺ فقال: "**بل ائتمروا بالمعروف، وتناهوا عن المنكر، حتى إذا رأيت شحاً مطاعاً، وهوى متبعاً، ودنيا مؤثرة، وإعجاب كل ذي رأي برأيه، فعليك بخاصة نفسك، ودع العوام، فإن من ورائكم أياما الصبر فيهن مثل القبض على الجمر، للعامل فيهن مثل أجر خمسين رجلا يعملون كعملكم**" قال عبد الله بن المبارك: وزاد غير عتبة: قيل يا رسول الله، أجر خمسين رجلا منهم أو منا؟ قال: "**بل أجر خمسين منكم**" رواه أبو داود[2] والترمذي[3] وقال: هذا حديث حسن غريب صحيح.

النداء السادس عشر: في حفظ وضبط الوصية

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا شَهَادَةُ بَيْنِكُمْ إِذَا حَضَرَ أَحَدَكُمُ الْمَوْتُ حِينَ الْوَصِيَّةِ اثْنَانِ ذَوَا عَدْلٍ مِّنكُمْ أَوْ آخَرَانِ مِنْ غَيْرِكُمْ﴾[١٠٦] والمقصود هنا التثبت في أمر الأموال والوصايا صيانة لحقوق الناس، ومع أن ما نزلت الآية بسببه لا يتكرر في الأعوام إلا نادرا؛ لكن لعظم حق المال تنزلت به الآيات وفصلت وأبانت عن كل ما يشكل على الناس في أمر الوصية في السفر.

وفي آخر "المائدة" ذكر الله أنموذجين:

﴿قَالَ اللَّهُ إِنِّي مُنَزِّلُهَا عَلَيْكُمْ ۖ فَمَن يَكْفُرْ بَعْدُ مِنكُمْ فَإِنِّي أُعَذِّبُهُ عَذَابًا لَّا أُعَذِّبُهُ أَحَدًا مِّنَ الْعَالَمِينَ﴾ [١١٥]؛ فهذا مثال لعاقبة من نقض عهد الله.

---

(١) جامع البيان للطبري (٩/٥٠).

(٢) ح(٤٣٤١).

(٣) ح(٣٠٥٨).

﴿قَالَ ٱللَّهُ هَٰذَا يَوْمُ يَنفَعُ ٱلصَّٰدِقِينَ صِدْقُهُمْ ۚ لَهُمْ جَنَّٰتٌ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ﴾[١١٩]، وهذا وعد من أوفى بعهد الله.

ولو أعملنا ما يُسمى بـ"لغة القرآن" أو "عُرف القرآن" سنجد أن المواثيق الغليظة (مِيثَاقًا غَلِيظًا) في القرآن ثلاثة :

أولها: ميثاق الله على أولي العزم من الرسل.

وثانيها: ميثاق الله على اليهود حين رفع فوقهم الطور.

وثالثها: ميثاق الزوجة على زوجها.

وفي الأخيرة هذه ومشابهتها في الوصف لأختيها وقفة تأمل لابد منها للقارئ، ولا أملك إلا أن أقول: عجيب شأن هذا القرآن.

كيف نقرأ سورة الأنعام ؟

الأنعام هي سورة التوحيد الطولى، وهي شرح لسورة التوحيد القصرى (الإخلاص)، وبينهما سورة التوحيد الوسطى (الزمر) ، وثلاثتها شرح لآية الفاتحة العظمى (إِيَّاكَ نَعْبُدُ وَإِيَّاكَ نَسْتَعِينُ).

ومناسبة الاسم "الأنعام" ظاهرة، فإنه لما كانت الأنعام من أظهر أنواع النعم عند قريش والعرب فهي عصب الحياة، عندهم، وكانت هذه النعمة تستلزم الشكر للمنعم بتوحيده في نسبة النعمة إليه وشكره عليها وطاعته فيما يأمر فيها؛ لكنّ قريشاً عصت وجعلت لله أنداداً فيما رزقهم من الأنعام، فأحلّوا ما حرّم الله وحرّموا ما أحلّ الله، فجاءت السورة تؤكد أن التوحيد عقيدة أحد لوازمها أن المحلل والمحرم هو المنعم المعبود وحده سبحانه، فالكون كلّه مُلك لله عبد له يحتكم لأمره ويستسلم لوحيه تعالى ولا يُذبح شيء من الأنعام إلا باسمه ولا يُتقرب بها إلا له وحده.

أولاً : حزبها، أي: "موضعها من المصحف العثماني"

الأنعام هي أول سورة مكية في ترتيب المصحف بعد ما سبقها من سور مدنية، وهي من السبع الطوال أفضل أحزاب القرآن بعد حزب المفصل، وموضوع حزب السبع الطوال يدور حول ثلث الأحكام فالقرآن ثلاثة أثلاث: توحيد وأحكام وأخبار، وغالب هذه الأحكام تتعلق بالضرورات الخمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وأعظم هذه الضرورات هو حفظ الدين، ورأس الدين هو التوحيد، فهي في "أحكام التوحيد"، وبذا تكون قد جمعت بين التوحيد والأحكام.

ثانياً : متى نزلت وأين ؟ (موضعها الزماني والمكاني)

هي مكية باتفاق المفسرين[1]، نزلت في حدود السنة السادسة بعد البعثة، وفي قليل من آياتها خلاف هل نزلت في مكة أو المدينة، وهذا لا يؤثر على مقصودنا هنا.

(١) التحرير والتنوير(٧/١٢١).

ومن هذين الموضعين الزماني والمكاني يتبين أن السورة نزلت في المرحلة الأولى لتكوين المجتمع المؤمن، وهو حال لا يخفى فيه ضعف المسلمين مقارنة بأعدائهم.

وهي أول سورة ابتدأت بالحمد بعد الفاتحة، فأولها (الحمد لله الذي خلق السموات والأرض)؛ لأن الحمد لا يكون حمداً إلا إذا كان مع حبّ للمحمود، والحبّ رأس العبادات وأصل التوحيد.

وقد نزلت ليلاً دفعة واحدة؛ ولعل ذلك لعظمة ما تنزلت به، ولأن التوحيد لا يتجزأ فليس فيه أنصاف حلول فإما خلود في الجنة أو خلود في النار.

ثالثاً : فيمَ نزلت ؟ (مقصودها)

قال أبو إسحاق الإسفراييني: في الأنعام كل قواعد التوحيد.

وقال الشهاب الخفاجي: قطب هذه السورة يدور على إثبات الصانع ودلائل التوحيد[1].

ويقول القرطبي: "إن هذه السورة أصلٌ في محاجة المشركين وغيرهم من المبتدعين".[2]

وقال سيد قطب في الظلال: "هي في عرض حقيقة الألوهية وأن يعبدوه وحده سبحانه، تعالجها بتعريف العباد برب العباد وأنه مربيهم الحق؛ لتصل إلى تعبيد العباد لربهم الحق"[3]. فإذا مقصود السورة هو:

توحيد الله وإقامة برهان الفطرة والعقل على استحقاقه العبادة وحده دون شريك.

فهي في التوحيد الخالص لله في الاعتقاد وما يتبعه من السلوك

وحين بدأت الأنعام استهلت بالتوحيد :

﴿ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَجَعَلَ ٱلظُّلُمَٰتِ وَٱلنُّورَ ثُمَّ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِرَبِّهِمْ يَعْدِلُونَ﴾[١].

وحين خُتمت أيضاً ختمت بالتوحيد :

---

(١) حاشية الشهاب على البيضاوي (٣/٣٠٧).

(٢) الجامع لأحكام القرآن (٦/٣٨٣).

(٣) في ظلال القرآن (٢/١٠١٧) (بتصرف).

﴿قُلْ إِنَّنِي هَدَانِي رَبِّي إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُشْرِكِينَ (١٦١) قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لَا شَرِيكَ لَهُ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ (١٦٣)﴾[١٦١-١٦٣] ، وما بين ذلك فصلت أحكام التوحيد كما سيأتي بعون الله.

رابعاً : فضائل السورة

حزبها هو السبع الطوال كما سبق، وقد تقدم الحديث على فضله أول الكتاب، والأنعام من سور التوحيد أفضل أقسام سور القرآن الثلاثة (التوحيد والأحكام والقصص).

وتناولت الأنعام القضايا الأساسية الكبرى لأصول العقيدة والإيمان وهذه القضايا يمكن تلخيصها في هذه القضايا الثلاث الكبرى:

قضية الربوبية والألوهية، قضية الوحي والرسالة، قضية البعث والجزاء

وكلها من أصول الدين وأركانه الكبار، وهذا وحده كاف في بيان فضلها.

ما ورد من الآثار في فضلها:

وردت آثار كثيرة في فضلها، ومن ذلك أنها نزلت جملة واحدة وشيعها سبعون ألف ملك لهم زجل بالتسبيح ، كما رواه جابر ﷺ قال: "لما نزلت الأنعام سبح رسول الله ﷺ ثم قال:" **لقد شيع هذه السورة من الملائكة ما سد الأفق**"[1].

وعن أَنَسِ بْنِ مَالِكٍ ﷺ، قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللَّهِ ﷺ: "**نزلت الأنعام بمكة جملة واحدة ليلاً ونزل معها سبعون ألف ملك قد سدّوا ما بين الخافقين لهم زجل بالتسبيح والتحميد والتمجيد فقال رسول الله ﷺ "سبحان ربي العظيم" وخرّ ساجداً**"[2].

وعن ابن عباس -رضي الله عنهما- قال: «نزلت الأنعام بمكة ليلة، جملة واحدة، حولها سبعون ألف ملك يجأرون حولها بالتسبيح»[3].

وكلها أحاديث ضعيفة جداً وأمثلها حديث جابر الذي صححه الحاكم، وقد قال عنه الذهبي: أظنه موضوعاً. وفيه انقطاع ظاهر.

---

(١) الحاكم ح(٣٢٢٦).

(٢) البيهقي في شعب الإيمان ح(٢٢١٠)، الأوسط للطبراني ح(٦٤٤٧) ملحوظة : زيادة وخر ساجدا لم أجدها.

(٣) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٣٧).

وأقوى ما ورد من الآثار في فضلها ثلاثة :

- أثر مجاهد عند عبدالرزاق وعبد بن حميد وغيرهما قال : نزلت الأنعام كلها جملة معها خمسمائة ملك يزفونها ويحفونها[1]. وإسناده صحيح .

ومجاهد إنما يأخذ عن ابن عباس، ومعناه لا يُقال من قبل الرأي، وهذا يقوي أن لذكر نزولها جملة واحدة ومعها ملائكة يحفونها أصلا يُطمئن إليه؛ ولذا تتابع أئمة التفسير بالأثر على ذكر هذه الآثار في تفاسيرهم.

- أثر عمر ﷺ : الأنعام من نواجب القرآن[2]،أي: من أفاضل سوره، والنواجب جمع نجيب، وهو من يكون أفضل من غيره.

وهذا الأثر أخرجه الدارمي وفيه ضعف يسير.

- أثر كعب الأحبار قال : فاتحة التوراة هي الأنعام وخاتمتها هود.

وقد أخرجه الدارمي[3] وابن جرير[4] وغيرهما وإسناده صحيح.

خامساً : قصص السورة

من أعجب ما جاء في السورة أن ليس فيها إلا قصة واحدة وهي قصة إبراهيم عليه السلام مع أبيه آزر، وسبب ورود هذه القصة في الأنعام أنها مناسبة لأسلوب الحجة وإقامة البراهين والأدلة عند مواجهة المشركين والملحدين.

وفي هذه القصة فوائد جمة، منها :

- أن من أجداد سيد الخلق ﷺ من هو كافر، وعلى هذا إجماع أهل السنة خلافا للشيعة الذين زعموا أن آزر عمه وليس أباه ثم زعموا أن أبا إبراهيم الذي خاطبه في كثير من آي القرآن إنما هو عمه وليس أبا له، وهذا ظاهر البطلان[5].

---

(١) الدر المنثور (٣ / ٢٤٤).

(٢) الدارمي ح(٣٤٤٤).

٣)ح (٣٤٤٥).

(٤) (١٤٧/٩).

(٥) ينظر التحرير والتنوير (٣١١/٧).

● أن القوة في العبارة والشدة فيها لا يلزم منها العقوق، بل ولا نقص البر بالوالد إذا كان الوالد معانداً مكابراً بعد النصح برفق كما جاء في سورة مريم، وكان ذلك في أول الأمر، وما هنا بعد ذلك فلما عاند وأبى قال له إبراهيم: (إِنِّي أَرَاكَ وَقَوْمَكَ فِي ضَلَالٍ مُبِينٍ) [74].

● أن أسرع طريق لدرجة اليقين ومرتبة الصديقين هي قراءة كتاب الكون المفتوح الدال على خالقه وصفاته جل وعلا؛ ولذا قال تعالى عن إبراهيم وهو صغير السن: ﴿وَكَذَٰلِكَ نُرِىٓ إِبْرَٰهِيمَ مَلَكُوتَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ ٱلْمُوقِنِينَ﴾[٧٥].

● أنه في حال دعوة الناس من الشرك إلى التوحيد ومن الكفر إلى الإيمان؛ فيجوز للداعية أن يقول ما ظاهرة كفر إذا أحتاج إلى ذلك، وطمع في هداية الناس بسببه، وأمن من التباس ذلك على أتباعه وعلى الناس، وأنه ستظهر حقيقة ما يريد في ختام مجلسه ومناظرته.

فإبراهيم عليه السلام كان مناظراً لا ناظراً كما رجحه ابن كثير(١) وابن عاشور وغيرهما من المفسرين.

قال ابن عاشور: كالذي يُكره على أن يقول كلمة الكفر وقلبُه مطمئنّ بالإيمان، فإنَّه إذا جاز ذلك لحفظ نفس واحدة وإنقاذها من الهلاك كان جوازه لإنقاذ فريق من النَّاس من الهلاك في الدنيا والآخرة أولى(٢).

● ومن فوائدها: أهمية الاحتراز في ألفاظ المناظرات، فقد قال إبراهيم لقومه حين خوّفوه من غضب الآلهة عليه قال: ﴿وَلَآ أَخَافُ مَا تُشْرِكُونَ بِهِۦٓ إِلَّآ أَن يَشَآءَ رَبِّى شَيْـًٔا ۗ وَسِعَ رَبِّى كُلَّ شَىْءٍ عِلْمًا ۗ أَفَلَا تَتَذَكَّرُونَ﴾[٨٠]، فقوله: (إلا أن يشاء ربي شيئا)، فإن شاء الحق أن يُنزل على عبدٍ كوكباً يصعقه أو يحرقه فهذا موضع آخر لا دخل للكواكب به، فإن النافع والضار هو الله، وما عداه فهو وسيلة أو سبب أو أداة.

---

(١) تفسير القرآن العظيم (٣/٢٩٢).

(٢) التحرير والتنوير(٧/٣١٩-٣٢٠).

سادساً: أسلوب السورة في تقرير التوحيد

مما يلفت النظر في السورة الكريمة أنها عرضت لأسلوبين بارزين لا نكاد نجدهما بهذه الكثرة في غيرها من السور وهما:

أسلوب التقرير وأسلوب النقض :

نرى هذين الأسلوبين يأتيان بالتتابع في السورة، فتأتي الآيات التي يذكر الله تعالى لنا البراهين على عظمته وقدرته في الكون ثم تنتقل الآيات للحجة مع المشركين والملحدين والبعيدين عن التوحيد.

أسلوب التقرير:

يعرض القرآن الأدلة المتعلقة بتوحيد الله والدلائل المطلوبة على وجوده وقدرته وسلطانه وقهره في صورة الشأن المسلّم، ويضع لذلك ضمير الغائب عن الحس الحاضر في القلب الذي لا يماري فيه قلب سليم ولا عقل راشد، في أنه تعالى المبدع للكائنات صاحب الفضل والإنعام، فيأتي بعبارة (هو) الدالة على الخالق المدبر الحكيم. وفي هذه الآيات تصوير قرآني فني بديع؛ بحيث يستشعر قارئ الآيات عظمة الله وقدرته وكأن الآيات مشاهد حية تعرض أمام أعيننا. وقد تكرر لفظ (هو) في السورة في أكثر من (30 مرة)، مثل قوله تعالى:

- ﴿هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن طِينٍ ثُمَّ قَضَىٰٓ أَجَلًا ۖ وَأَجَلٌ مُّسَمًّى عِندَهُۥ ۖ ثُمَّ أَنتُمْ تَمْتَرُونَ﴾[٢].
- ﴿وَهُوَ ٱللَّهُ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَفِى ٱلْأَرْضِ ۖ يَعْلَمُ سِرَّكُمْ وَجَهْرَكُمْ وَيَعْلَمُ مَا تَكْسِبُونَ﴾[٣].
- ﴿وَلَهُۥ مَا سَكَنَ فِى ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ ۚ وَهُوَ ٱلسَّمِيعُ ٱلْعَلِيمُ﴾[١٣].
- ﴿قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّىٓ أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ﴾[١٤]، ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ ٱللَّهُ بِضُرٍّ فَلَا كَاشِفَ لَهُۥٓ إِلَّا هُوَ ۖ وَإِن يَمْسَسْكَ بِخَيْرٍ فَهُوَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ﴾[١٧].
- ﴿وَهُوَ ٱلْقَاهِرُ فَوْقَ عِبَادِهِۦ ۚ وَهُوَ ٱلْحَكِيمُ ٱلْخَبِيرُ﴾[١٨].
- ﴿وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ۚ وَيَعْلَمُ مَا فِى ٱلْبَرِّ وَٱلْبَحْرِ ۚ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلَّا يَعْلَمُهَا وَلَا حَبَّةٍ فِى ظُلُمَٰتِ ٱلْأَرْضِ وَلَا رَطْبٍ وَلَا يَابِسٍ إِلَّا فِى كِتَٰبٍ مُّبِينٍ﴾ [٥٩] وغيرها.

أما أسلوب النقض:

فهو يظهر جلياً في تعليم الرسول ﷺ تلقين الحجة ليقذف بها في وجه الخصم؛ بحيث تأخذ عليه سمعه، وتملك عليه قلبه، فلا يستطيع التخلص أو التفلت منها، ويأتي هذا الأسلوب بطريق السؤال والجواب يسألهم ثم يجيب، **ونلاحظ في السورة كثرة استخدام كلمة (قل) ، فقد وردت في السورة(42 مرة)** .

هكذا تعرض السورة الكريمة لمناقشة المشركين وإفحامهم بالحجج الساطعة والبراهين القاطعة التي تجلي الحق وتقصم ظهر الباطل. ومن هنا كانت أهمية الأنعام في تركيز الدعوة الإسلامية: تقرر حقائقها وتثبت دعائمها وتحاجج المعارضين لها بطريقة المناظرة والمجادلة. والسورة تذكر توحيد الله جلّ وعلا في الخلق والإيجاد وفي التشريع والعبادة وتذكر موقف المكذبين للرسل وتقص عليهم ما حاق بأمثالهم السابقين وتذكر بالبعث والجزاء، **وفيما يلي الآيات التي ورد فيها كلمة (قل) :**

الآيات التي ورد فيها (قل) في الأنعام :

﴿قُلْ سِيرُوا فِي الْأَرْضِ ثُمَّ انظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾[١١].

﴿قُل لِّمَن مَّا فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ ۖ قُل لِّلَّهِ ۚ كَتَبَ عَلَىٰ نَفْسِهِ الرَّحْمَةَ ۚ لَيَجْمَعَنَّكُمْ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ لَا رَيْبَ فِيهِ ۚ الَّذِينَ خَسِرُوا أَنفُسَهُمْ فَهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ﴾[١٢].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَتَّخِذُ وَلِيًّا فَاطِرِ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَهُوَ يُطْعِمُ وَلَا يُطْعَمُ ۗ قُلْ إِنِّي أُمِرْتُ أَنْ أَكُونَ أَوَّلَ مَنْ أَسْلَمَ ۖ وَلَا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُشْرِكِينَ﴾[١٤].

﴿قُلْ إِنِّي أَخَافُ إِنْ عَصَيْتُ رَبِّي عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ﴾[١٥].

﴿قُلْ أَيُّ شَيْءٍ أَكْبَرُ شَهَادَةً ۖ قُلِ اللَّهُ ۖ شَهِيدٌ بَيْنِي وَبَيْنَكُمْ ۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا الْقُرْآنُ لِأُنذِرَكُم بِهِ وَمَن بَلَغَ ۚ أَئِنَّكُمْ لَتَشْهَدُونَ أَنَّ مَعَ اللَّهِ آلِهَةً أُخْرَىٰ ۚ قُل لَّا أَشْهَدُ ۚ قُلْ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٌ وَاحِدٌ وَإِنَّنِي بَرِيءٌ مِّمَّا تُشْرِكُونَ﴾[١٩].

﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾[١٦٢].

﴿قُلْ أَغَيْرَ اللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَيْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ﴾[١٦٤]. وغيرها كثير .

هكذا تتوالى السورة بمجموعة من الآيات التي تدل على قدرة الله تعالى ثم تتبعها آيات مجادلة ومواجهة مع المشركين والملحدين.وفي مجموع هذه الآيات العظيمة في الحجة والبرهان تأتي آية فاصلة في السورة تدلنا على أن آيات الله تعالى في الكون يراها كل مبصر، لكن القلوب إذا عميت لا تراها وتجحد بها وتكفر. ﴿قَدْ جَآءَكُم بَصَآئِرُ مِن رَّبِّكُمْ فَمَنْ أَبْصَرَ فَلِنَفْسِهِۦ وَمَنْ عَمِىَ فَعَلَيْهَا وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ﴾[١٠٤].

سابعًا : ختام السورة

ختمت السورة بالوصايا العشر التي نزلت في تلك الكتب السابقة ودعا اليها جميع الأنبياء السابقين، أنزلها الله سبحانه هدىً لبني إسرائيل مِن قَبْلِ كتاب موسى كما وثّقها الله في الأنعام والخطاب لأهل الكتاب.

وهذه الآيات الثلاث التي تضمنت الوصايا العشر كلها ختمت بالوصية من الله،

فختمت الآية الأولى بقوله تعالى:﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾، وختمت الآية الثانية بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾، وختمت الآية الثالثة بقوله تعالى: ﴿ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾

وقد أخرج الترمذي في جامعه وحسنه عن عبدالله بن مسعود ﷺ ، قال: " من سره أن ينظر إلى الصـــحيفة التي عليها خاتم محمد ﷺ فليقرأ هذه الآيات ﴿قُلْ تَعَالَوْا۟ أَتْلُ مَا حَرَّمَ رَبُّكُمْ عَلَيْكُمْ﴾ [١٥١] الآية إلى قوله ﴿لعلكم تتقون﴾ ... "(١).

وهذه الوصية فيها :

١. ﴿أَلَّا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا﴾

٢. ﴿وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا﴾.

٣. ﴿وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُم مِّنْ إِمْلَـٰقٍ نَّحْنُ نَرْزُقُكُمْ وَإِيَّاهُمْ﴾.

---

(١) ح(٣٠٧٠).

٤. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلْفَوَٰحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ﴾.

٥. ﴿وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَعْقِلُونَ﴾.

٦. ﴿وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُۥ﴾.

٧. ﴿وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ بِٱلْقِسْطِ ۖ لَا نُكَلِّفُ نَفْسًا إِلَّا وُسْعَهَا﴾.

٨. ﴿وَإِذَا قُلْتُمْ فَٱعْدِلُوا۟ وَلَوْ كَانَ ذَا قُرْبَىٰ﴾.

٩. ﴿وَبِعَهْدِ ٱللَّهِ أَوْفُوا۟ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾.

١٠. ﴿وَأَنَّ هَٰذَا صِرَٰطِى مُسْتَقِيمًا فَٱتَّبِعُوهُ ۖ وَلَا تَتَّبِعُوا۟ ٱلسُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمْ وَصَّىٰكُم بِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ﴾.

وتنتهي بآية فذة تكشف للإنسان عن مركزه عند ربه في هذه الحياة، وهو أنه خليفة في الأرض، وهذا كلّه مرتبط بهدف البقرة وهو الاستخلاف في الأرض، فالأنعام تتحدث عن ملك الله تعالى في الكون، وكأنما يقول لنا وحدوني أملككم الأرض وأجعلكم خلائف﴿وَهُوَ ٱلَّذِى جَعَلَكُمْ خَلَٰٓئِفَ ٱلْأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَٰتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِى مَآ ءَاتَىٰكُمْ ۗ إِنَّ رَبَّكَ سَرِيعُ ٱلْعِقَابِ وَإِنَّهُۥ لَغَفُورٌ رَّحِيمٌۢ﴾[١٦٥].

فهذه هي الوصايا العشر اشتملت على أسمى وأصدق وأفضل ألوان التربية للأفراد والجماعات، إذ المتأمل فيها يراها: قد وضعت أساس العقيدة السليمة، القائمة على إخلاص العبادة لله الواحد القهار، وأقامت الأسرة الفاضلة على أساس الإحسان بالوالدين، والرحمة بالأولاد، وحفظت المجتمع من التصدع والاضطراب عن طريق تحريمها لانتهاك الأنفس والأموال والأعراض، ثم ربطت كل ذلك بتقوى الله تعالى التي هي منبع كل خير وسبيل كل فلاح.

وللدكتور/ محمد الصالح بحث ماتع مفيد عنوانه "الوصايا العشر كما جاءت في الأنعام"، وكان ختام السورة بآية من أعظم آيات التوحيد في القرآن كله: ﴿قُلْ إِنَّ صَلَاتِى وَنُسُكِى وَمَحْيَاىَ وَمَمَاتِى لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾﴾ [١٦١-١٦٣].

رزقني الله وإياكم إخلاص الدين له وحده في محيانا ومماتنا، وأن يجعل الأنعام شافعة وصاحبة لنا وحجة وشاهدة لنا لا علينا.

كيف نقرأ سورة الأعراف ؟

"الأعراف" هذا هو اسمها المستفيض، وليس لها اسم سواه على التحقيق، وما عدا ذلك إنما هو وصف، وهو اسمها في المصاحف وكتب التفسير والحديث وغيرها.

أولاً: حزبها (موضعها من المصحف العثماني)

هي من حزب السبع الطوال، وقد سبق في الحديث عن البقرة أن هذا الحزب غالبه في الأحكام ، وسيأتي توضيح ذلك بخصوص هذه السورة عند الحديث عن مقصودها -بعون الله-، وقد ثبت في البخاري[1]عن زيد بن ثابت "**رأيت رسول الله ﷺ يقرأ في المغرب بطولى الطوليين**" تثنية طولى، والمراد بهما الأعراف والأنعام على المشهور عند أهل العلم.

ثانياً : أين نزلت ومتى؟ (موضعها الزماني والمكاني)

الأعراف مكية باتفاق المفسرين[2]، ويظهر أنها لم تنزل أوائل البعثة بل بعد ذلك، أولاً: لطولها، فكل ما نزل أولاً لم يكن بهذا الطول، ثم لأسلوبها وقصصها وأخبارها التي تحوي النهي عن الحرج بالوحي والتردد فيه، وتأمر بالعزيمة على الرشد، وهذا لا يكون إلا بعد وضوح الحق وجلائه، وقد عدها جابر بن زيد بعد سورة ص وقبل الجن نزولا[3].

ثالثاً : فيمَ نزلت؟ (مقصودها)

هو - والله أعلم - (عرفت فاعزم ولا تتردد) فلابد لمن أبصر الحق ونوره أن يقطع العلائق التي تحول دون الاستجابة للحق، ومن أعظم هذه العلائق التردد بعد بيان الحق ووضوحه، وعدم

---

(١) ح (٧٦٤) .

(٢) التحرير والتنوير (٦/٨) ، وفي بعض آياتها خلاف قال الامام ابن الجوزي :

فصل في نزولها: روى العوفي، وابن أبي طلحة، وأبو صالح عن ابن عباس، أن سورة (الأعراف) من المكّيّ، وهذا قول الحسن، ومجاهد، وعكرمة، وعطاء، وجابر بن زيد، وقتادة. وروي عن ابن عباس، وقتادة أنها مكّيّة، إلّا خمس آيات أوّلها قوله تعالى: وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ، وقال مقاتل: كلّها مكّيّة، إلّا قوله: (وَسْئَلْهُمْ عَنِ الْقَرْيَةِ إلى قوله: وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِنْ بَنِي آدَمَ مِنْ ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ) فإنهنّ مدنيّات. زاد المسير في علم التفسير (٢/١٠٠).

(٣)الإتقان (١/٦٩-٩٧) .

حزم النفس عن هواها حتى تتصارع حسنات المرء بسيئاته، وكان اسم السورة مأخوذاً من هذا العائق فـ"الأعراف" إنما هو إشارة إلى السور الذي بين الجنة والنار وعليه قوم ترددوا ولم يعزموا أمرهم على الرشد بل تارة في الطاعة وتارة في المعصية.

ومطلع السورة كذلك في قوله: "فلا يكن في صدرك حرج منه..."، والحرج: هو التردد في الإنذار بالقرآن، وهذا عائق يتعلق بالمبلغ عن الله حين لا يأخذ الكتاب بقوة ويبلغه بقوة بل يُدهن فيُدهنون ، أي: لا تتحرج من إيمانك و دينك بل واجه من حولك و أنت على ثقة بأن الحق معك وقد نزلت هذه الآية في مكة تدعو المسلمين بأن يثبتوا على الحق ولا يتحرجوا من الصدع بإيمانهم والإعلان عنه.

ومن أعظم هذه العلائق أيضاً الكبر؛ وهل منع إبليس وأتباعه كأبي لهب وأبي جهل والوليد بن المغيرة وغيرهم من اتباع الحق والإذعان له إلا الكبر؛ ولذا تكرر ذكره في السورة قريباً من عشر مرات، وورد في مطلعها: ﴿قَالَ فَٱهۡبِطۡ مِنۡهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخۡرُجۡ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[١٣] ، وفي آخر آية منها: ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾[٢٠٦].

ومن أشد هذه الآيات وقعاً وألماً وذمّاً للتكبر قوله تعالى في وسط السورة: ﴿سَأَصۡرِفُ عَنۡ ءَايَٰتِيَ ٱلَّذِينَ يَتَكَبَّرُونَ فِي ٱلۡأَرۡضِ بِغَيۡرِ ٱلۡحَقِّ وَإِن يَرَوۡاْ كُلَّ ءَايَةٖ لَّا يُؤۡمِنُواْ بِهَا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلرُّشۡدِ لَا يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗا وَإِن يَرَوۡاْ سَبِيلَ ٱلۡغَيِّ يَتَّخِذُوهُ سَبِيلٗاۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمۡ كَذَّبُواْ بِـَٔايَٰتِنَا وَكَانُواْ عَنۡهَا غَٰفِلِينَ﴾[١٤٦].

وغالباً ما يحتقر أهل الطغيان أهل الإيمان وفي الآخرة تتجلى الأمور ﴿أَهَٰٓؤُلَآءِ ٱلَّذِينَ أَقۡسَمۡتُمۡ لَا يَنَالُهُمُ ٱللَّهُ بِرَحۡمَةٍۚ ٱدۡخُلُواْ ٱلۡجَنَّةَ لَا خَوۡفٌ عَلَيۡكُمۡ وَلَآ أَنتُمۡ تَحۡزَنُونَ﴾ [٤٩].

ومن هذه العلائق حُسن الظن بالشيطان وأعوانه وجنده وتصديقهم حين يظهر منهم ما يبدو وكأنه إرادة للخير ويؤكدون ذلك بقرائن عدة توحي للسذج وكأنها حقائق ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾[٢١].

ومن أعظم هذه العلائق شهوة القلب والفرج ووسيلتها "التعري"، وهو أكبر أبواب الفاحشة التي تصد عن الله وعن شرعه وعن حكمته من خلقه، ومن عجائب التنزيل أن أول

نداء في القرآن لبني آدم هو نداءٌ بالأمر بالستر ﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ﴾[٢٦].

ومن أشد هذه العلائق تأثيراً اتباع الأكابر من غير بصيرة ونظر حتى وإن كانوا من رؤوس الضلالة ﴿كُلَّمَا دَخَلَتۡ أُمَّةٞ لَّعَنَتۡ أُخۡتَهَاۖ حَتَّىٰٓ إِذَا ٱدَّارَكُواْ فِيهَا جَمِيعٗا قَالَتۡ أُخۡرَىٰهُمۡ لِأُولَىٰهُمۡ رَبَّنَا هَٰٓؤُلَآءِ أَضَلُّونَا فَـَٔاتِهِمۡ عَذَابٗا ضِعۡفٗا مِّنَ ٱلنَّارِۖ قَالَ لِكُلّٖ ضِعۡفٞ وَلَٰكِن لَّا تَعۡلَمُونَ﴾[٣٨].

ومن هذه العلائق: البيئة الفاســـدة، ﴿وَٱلۡبَلَدُ ٱلطَّيِّبُ يَخۡرُجُ نَبَاتُهُۥ بِإِذۡنِ رَبِّهِۦۖ وَٱلَّذِي خَبُثَ لَا يَخۡرُجُ إِلَّا نَكِدٗاۚ﴾ [٥٨].

ومنها: قلة الصبر والعجلة، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوۡمِهِ ٱسۡتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصۡبِرُوٓاْۖ إِنَّ ٱلۡأَرۡضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنۡ عِبَادِهِۦۖ وَٱلۡعَٰقِبَةُ لِلۡمُتَّقِينَ ١٢٨ قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبۡلِ أَن تَأۡتِيَنَا وَمِنۢ بَعۡدِ مَا جِئۡتَنَا﴾[١٢٨-١٢٩].

ومنها: ترك النهي عن المنكر، ﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ﴾[١٦٤].

ومنهـا: ترك العمـل بـالعلم، ﴿وَٱتۡلُ عَلَيۡهِمۡ نَبَأَ ٱلَّذِيٓ ءَاتَيۡنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنۡهَا فَأَتۡبَعَهُ ٱلشَّيۡطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلۡغَاوِينَ﴾[١٧٥].

ومنها: قلة التفكر وعدم التأني والفحص قبل اتخاذ القرار، ﴿أَوَلَمۡ يَتَفَكَّرُواْۗ مَا بِصَاحِبِهِم مِّن جِنَّةٍۚ إِنۡ هُوَ إِلَّا نَذِيرٞ مُّبِينٌ﴾[١٨٤].

وقد جاء في هذه السورة العظيمة التحذير من هذه العلائق من خلال ما ورد فيها من أخبار وقصص.

قصص السورة، وهي أربع عشرة قصة:

الأولى: قصة الملائكة عليهم السلام وإبليس لعنه الله مع خلق آدم عليه السلام، وكانت عليقة الكبر هي التي آلت بالشيطان الرجيم من الإمامة في العبادة إلى اللعنة السرمدية، ﴿قَالَ فَٱهْبِطْ مِنْهَا فَمَا يَكُونُ لَكَ أَن تَتَكَبَّرَ فِيهَا فَٱخْرُجْ إِنَّكَ مِنَ ٱلصَّٰغِرِينَ﴾[١٣].

وإنما كان نجاة الملائكة بالخضوع الذي هو مناف للكبر، وأمارة ذلك كثرة السجود؛ ولذا ختمت السورة به ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسْجُدُونَ﴾[٢٠٦].

الثانية: قصة خداع إبليس لآدم عليه السلام وأكله من الشجرة، وكانت عليقة إحسان الظن وتصديق القسم ممن ليس أهلاً لذلك سبباً في إخراج آدم وزوجه من الجنة، ﴿وَقَاسَمَهُمَآ إِنِّي لَكُمَا لَمِنَ ٱلنَّٰصِحِينَ﴾ [٢١].

وعلاج ذلك بالحزم والعزم وأخذ الأمور بما تقتضيه من الحذر والحسم، وقد امتثل موسى عليه السلام ذلك؛ ولذلك كان من أولي العزم من الرسل ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى ٱلْأَلْوَاحَ وَأَخَذَ بِرَأْسِ أَخِيهِ يَجُرُّهُۥٓ إِلَيْهِۚ﴾[١٥٠].

الثالثة: قصة أصحاب الأعراف وكانت عليقة التردد بين داعي الحق وداعي الهوى وعدم الأخذ بالعزيمة بعد وضوح الحق سببا في هذا المآل حين استوت حسناتهم وسيآتهم ﴿وَبَيْنَهُمَا حِجَابٌۚ وَعَلَى ٱلْأَعْرَافِ رِجَالٌ يَعْرِفُونَ كُلًّۢا بِسِيمَٰهُمْۚ﴾[٤٦].

الرابعة: قصة نوح عليه السلام وقومه وكانت عليقة التعامي عن الهدى واحتقار الداعي سببا في هلاكهم ﴿أَوَعَجِبْتُمْ أَن جَآءَكُمْ ذِكْرٌ مِّن رَّبِّكُمْ عَلَىٰ رَجُلٍ مِّنكُمْ لِيُنذِرَكُمْ وَلِتَتَّقُوا۟ وَلَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿٦٣﴾ فَكَذَّبُوهُ فَأَنجَيْنَٰهُ وَٱلَّذِينَ مَعَهُۥ فِي ٱلْفُلْكِ وَأَغْرَقْنَا ٱلَّذِينَ كَذَّبُوا۟ بِـَٔايَٰتِنَآۚ إِنَّهُمْ كَانُوا۟

﴿قَوْمًا عَمِينَ ﴿٦٤﴾﴾[٦٣-٦٤]؛ وعلاج ذلك بضده من الإقبال على الناصح والخضوع للحق بعدما تبين وظهرت دلائله .

الخامسة: قصة هود عليه السلام وقومه عاد، وكانت عليقة اتباع الأكابر وما عليه الآباء والأجداد سببا في العذاب، ﴿قَالُوٓاْ أَجِئۡتَنَا لِنَعۡبُدَ ٱللَّهَ وَحۡدَهُۥ وَنَذَرَ مَا كَانَ يَعۡبُدُ ءَابَآؤُنَا فَأۡتِنَا بِمَا تَعِدُنَآ إِن كُنتَ مِنَ ٱلصَّٰدِقِينَ﴾[٧٠]، وعلاج ذلك بإعلان الحق بوضوح لا يعتريه لبس، ﴿قَالُوٓاْ ءَامَنَّا بِرَبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾ [١٢١]، وحتى لا يلتبس من هو الرب المقصود قالوا: ﴿رَبِّ مُوسَىٰ وَهَٰرُونَ﴾[١٢٢]، ثم الفزع إلى الله بالدعاء والتجأ﴿قَالُوٓاْ إِنَّآ إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ ﴿١٢٥﴾ وَمَا تَنقِمُ مِنَّآ إِلَّآ أَنۡ ءَامَنَّا بِـَٔايَٰتِ رَبِّنَا لَمَّا جَآءَتۡنَاۚ رَبَّنَآ أَفۡرِغۡ عَلَيۡنَا صَبۡرًا وَتَوَفَّنَا مُسۡلِمِينَ ﴿١٢٦﴾﴾ [١٢٥-١٢٦].

السادسة: قصة صالح عليه السلام مع قومه ثمود، وكانت عليقة الكبر عن الاستجابة للحق سبباً في محقهم،﴿قَالَ ٱلۡمَلَأُ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُواْ مِن قَوۡمِهِۦ لِلَّذِينَ ٱسۡتُضۡعِفُواْ لِمَنۡ ءَامَنَ مِنۡهُمۡ أَتَعۡلَمُونَ أَنَّ صَٰلِحًا مُّرۡسَلٞ مِّن رَّبِّهِۦۚ قَالُوٓاْ إِنَّا بِمَآ أُرۡسِلَ بِهِۦ مُؤۡمِنُونَ ﴿٧٥﴾ قَالَ ٱلَّذِينَ ٱسۡتَكۡبَرُوٓاْ إِنَّا بِٱلَّذِيٓ ءَامَنتُم بِهِۦ كَٰفِرُونَ ﴿٧٦﴾﴾[٧٥-٧٦]وعلاجه بضده كما سبق.

السابعة: قصة لوط عليه السلام مع قومه، وكانت عليقة محبة الفاحشة والتنادي بها جهراً سبباً للمحق، ﴿وَلُوطًا إِذۡ قَالَ لِقَوۡمِهِۦٓ أَتَأۡتُونَ ٱلۡفَٰحِشَةَ مَا سَبَقَكُم بِهَا مِنۡ أَحَدٖ مِّنَ ٱلۡعَٰلَمِينَ ﴿٨٠﴾ إِنَّكُمۡ لَتَأۡتُونَ ٱلرِّجَالَ شَهۡوَةٗ مِّن دُونِ ٱلنِّسَآءِۚ بَلۡ أَنتُمۡ قَوۡمٞ مُّسۡرِفُونَ ﴿٨١﴾﴾[٨٠-٨١]، وعلاجها بالتطهر من أسباب الفاحشة ومن أقواها الستر في اللباس﴿يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ قَدۡ أَنزَلۡنَا عَلَيۡكُمۡ لِبَاسٗا يُوَٰرِي سَوۡءَٰتِكُمۡ وَرِيشٗاۖ وَلِبَاسُ ٱلتَّقۡوَىٰ ذَٰلِكَ خَيۡرٞۚ ذَٰلِكَ مِنۡ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ لَعَلَّهُمۡ يَذَّكَّرُونَ ﴿٢٦﴾ يَٰبَنِيٓ ءَادَمَ لَا يَفۡتِنَنَّكُمُ ٱلشَّيۡطَٰنُ كَمَآ أَخۡرَجَ أَبَوَيۡكُم مِّنَ ٱلۡجَنَّةِ يَنزِعُ عَنۡهُمَا لِبَاسَهُمَا لِيُرِيَهُمَا سَوۡءَٰتِهِمَآۚ إِنَّهُۥ يَرَىٰكُمۡ هُوَ وَقَبِيلُهُۥ مِنۡ حَيۡثُ لَا تَرَوۡنَهُمۡۗ إِنَّا جَعَلۡنَا ٱلشَّيَٰطِينَ أَوۡلِيَآءَ لِلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ ﴿٢٧﴾﴾[٢٦-٢٧].

الثامنة: قصة شعيب عليه السلام مع قومه مدين، وكانت عليقة محبة المال وأكل أموال الناس بالباطل سببا للعنة عليهم ﴿فَأَوْفُواْ ٱلْكَيْلَ وَٱلْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُواْ ٱلنَّاسَ أَشْيَآءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُواْ فِي ٱلْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَٰحِهَاۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[٨٥]، وعلاج فساد المال لا يكون إلا بالإيمان أن ما عند الله خير له من الدنيا وما فيها.

التاسعة: قصة موسى عليه السلام مع فرعون، وكانت عليقة الكبر واتباع الأكابر من غير هدى هي القاضية، ﴿فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمُ ٱلطُّوفَانَ وَٱلْجَرَادَ وَٱلْقُمَّلَ وَٱلضَّفَادِعَ وَٱلدَّمَ ءَايَٰتٍ مُّفَصَّلَٰتٍ فَٱسْتَكْبَرُواْ وَكَانُواْ قَوْمًا مُّجْرِمِينَ﴾[١٣٣]، وقد سبق ذكر علاجها.

العاشرة: قصة موسى عليه السلام مع قومه من بني إسرائيل، وكانت عليقة العجلة وقلة الصبر سبباً فيما آل إليه أمرهم من الشتات وتسلط الأعداء، وقد أمرهم موسى بضد ذلك وهو الصبر، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُواْ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓاْ﴾ [١٢٨]، فامتثلوا أول الأمر، فقال تعالى: ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ ٱلْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ بِمَا صَبَرُواْ﴾[١٣٧]، ثم استعجلوا؛ حتى قال تعالى عنهم: ﴿وَلَمَّا رَجَعَ مُوسَىٰٓ إِلَىٰ قَوْمِهِۦ غَضْبَٰنَ أَسِفًا قَالَ بِئْسَمَا خَلَفْتُمُونِي مِنۢ بَعْدِيٓۖ أَعَجِلْتُمْ أَمْرَ رَبِّكُمْۖ وَأَلْقَى﴾[١٥٠]، وانظر إلى قولهم لنبيهم: ﴿قَالُوٓاْ أُوذِينَا مِن قَبْلِ أَن تَأْتِيَنَا وَمِنۢ بَعْدِ مَا جِئْتَنَا﴾[١٢٩]، من استعجال النصر مع كونهم في أول مراحل إيمانهم.

ولما كانت عليقة الجهل من أشد ما يحول بين العبد وبين ربه، نبه الله عليها، ﴿وَجَٰوَزْنَا بِبَنِيٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱلْبَحْرَ فَأَتَوْاْ عَلَىٰ قَوْمٍ يَعْكُفُونَ عَلَىٰٓ أَصْنَامٍ لَّهُمْۚ قَالُواْ يَٰمُوسَى ٱجْعَل لَّنَآ إِلَٰهًا كَمَا لَهُمْ ءَالِهَةٌۚ قَالَ إِنَّكُمْ قَوْمٌ تَجْهَلُونَ﴾[١٣٨].

الحادية عشرة: قصة بني إسرائيل بعد موسى عليه السلام، وهي إشارة إلى شيء من أكبر العلائق التي وقع فيها اليهود وهو تبديل الوحي بعد أن علموه بحسب ما تهوى الأنفس ﴿وَإِذْ قِيلَ لَهُمُ ٱسْكُنُوا۟ هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةَ وَكُلُوا۟ مِنْهَا حَيْثُ شِئْتُمْ وَقُولُوا۟ حِطَّةٌ وَٱدْخُلُوا۟ ٱلْبَابَ سُجَّدًا نَّغْفِرْ لَكُمْ خَطِيٓـَٔـٰتِكُمْ ۚ سَنَزِيدُ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿١٦١﴾ فَبَدَّلَ ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ قَوْلًا غَيْرَ ٱلَّذِى قِيلَ لَهُمْ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِجْزًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ بِمَا كَانُوا۟ يَظْلِمُونَ ﴿١٦٢﴾﴾[١٦١-١٦٢].

الثانية عشرة: قصة أصحاب القرية التي كانت حاضرة البحر، وفيها التحذير من عليقتين:

- التحايل على الشرع : ﴿وَسْـَٔلْهُمْ عَنِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلَّتِى كَانَتْ حَاضِرَةَ ٱلْبَحْرِ إِذْ يَعْدُونَ فِى ٱلسَّبْتِ إِذْ تَأْتِيهِمْ حِيتَانُهُمْ يَوْمَ سَبْتِهِمْ شُرَّعًا وَيَوْمَ لَا يَسْبِتُونَ ۙ لَا تَأْتِيهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ نَبْلُوهُم بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾ [١٦٣].
- ترك النهي عن المنكر : ﴿فَلَمَّا نَسُوا۟ مَا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦٓ أَنجَيْنَا ٱلَّذِينَ يَنْهَوْنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذْنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ بِعَذَابٍۭ بَـِٔيسٍۭ بِمَا كَانُوا۟ يَفْسُقُونَ﴾[١٦٥].

الثالثة عشرة: قصة أمية بن أبي الصلت وكان على الحنيفية وعنده علم بالكتب السماوية، لكن عليقة الحسد ألا يكون هو المرسل بدلا من محمد ﷺ هي التي ردته عن الإيمان ﴿وَٱتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ ٱلَّذِىٓ ءَاتَيْنَٰهُ ءَايَٰتِنَا فَٱنسَلَخَ مِنْهَا فَأَتْبَعَهُ ٱلشَّيْطَٰنُ فَكَانَ مِنَ ٱلْغَاوِينَ﴾[١٧٥].

الرابعة عشرة: قصة من جعلا لله شريكاً في الولد، وهذه في عليقة الظلم والشرك أعظم الظلم فكيف يكون الله هو الرازق للولد ثم يشرك به غيره ﴿فَلَمَّآ ءَاتَىٰهُمَا صَٰلِحًا جَعَلَا لَهُۥ شُرَكَآءَ فِيمَآ ءَاتَىٰهُمَا ۚ فَتَعَٰلَى ٱللَّهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ ﴿١٩٠﴾ أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾﴾[١٩٠-١٩٢].

وعلاج هذه العلائق في الأعراف في غاية البيان خصوصا في ختامها من قوله تعالى

﴿مَن يَهْدِ ٱللَّهُ فَهُوَ ٱلْمُهْتَدِى ۖ وَمَن يُضْلِلْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ﴾[١٧٨] إلى ختام السورة، **ولعلي ألخص هاهنا بعضاً من دواء "الأعراف" لهذه الأدواء :**

الأول: دعاء الله بأسمائه الحسنى ﴿وَلِلَّهِ ٱلْأَسْمَآءُ ٱلْحُسْنَىٰ فَٱدْعُوهُ بِهَا ۖ وَذَرُوا۟ ٱلَّذِينَ يُلْحِدُونَ فِىٓ أَسْمَٰٓئِهِۦ ۚ سَيُجْزَوْنَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ﴾[١٨٠].

الثاني: تجريد التوحيد لرب العالمين وعدم صرف شيء من العبادة إلى أحد سواه سبحانه كما قال تعالى: ﴿قُل لَّآ أَمْلِكُ لِنَفْسِى نَفْعًا وَلَا ضَرًّا إِلَّا مَا شَآءَ ٱللَّهُ ۚ وَلَوْ كُنتُ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ لَٱسْتَكْثَرْتُ مِنَ ٱلْخَيْرِ وَمَا مَسَّنِىَ ٱلسُّوٓءُ ۚ﴾[١٨٨]، وقال: ﴿أَيُشْرِكُونَ مَا لَا يَخْلُقُ شَيْـًٔا وَهُمْ يُخْلَقُونَ ﴿١٩١﴾ وَلَا يَسْتَطِيعُونَ لَهُمْ نَصْرًا وَلَآ أَنفُسَهُمْ يَنصُرُونَ ﴿١٩٢﴾ وَإِن تَدْعُوهُمْ إِلَى ٱلْهُدَىٰ لَا يَتَّبِعُوكُمْ ۚ سَوَآءٌ عَلَيْكُمْ أَدَعَوْتُمُوهُمْ أَمْ أَنتُمْ صَٰمِتُونَ ﴿١٩٣﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَدْعُونَ مِن دُونِ ٱللَّهِ عِبَادٌ أَمْثَالُكُمْ ۖ فَٱدْعُوهُمْ فَلْيَسْتَجِيبُوا۟ لَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٩٤﴾ أَلَهُمْ أَرْجُلٌ يَمْشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَيْدٍ يَبْطِشُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ أَعْيُنٌ يُبْصِرُونَ بِهَآ ۖ أَمْ لَهُمْ ءَاذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۗ قُلِ ٱدْعُوا۟ شُرَكَآءَكُمْ ثُمَّ كِيدُونِ فَلَا تُنظِرُونِ ﴿١٩٥﴾﴾[١٩١-١٩٥].

الثالث: التجمل بالخلق الجميل ورد السيئة بالحسنة كما قال تعالى: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾[١٩٩].

الرابع: الصبر والاستعانة بالله على عظائم الأمور، ﴿قَالَ مُوسَىٰ لِقَوْمِهِ ٱسْتَعِينُوا۟ بِٱللَّهِ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۖ إِنَّ ٱلْأَرْضَ لِلَّهِ يُورِثُهَا مَن يَشَآءُ مِنْ عِبَادِهِۦ ۖ وَٱلْعَٰقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ﴾ [١٢٨].

الخامس: المداومة على الاستغفار والاستعاذة من الشيطان الرجيم كما قال: ﴿وَإِمَّا يَنزَغَنَّكَ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ نَزْغٌ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ ۚ إِنَّهُۥ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٠٠﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾﴾[٢٠٠-٢٠١].

وهذه الآية في ردّ العجز إلى الصدر، حيث ذكر الشيطان أول السورة وذكرت الاستعاذة منه في آخرها.

وقال سبحانه عن التوبة: ﴿وَٱلَّذِينَ عَمِلُواْ ٱلسَّيِّـَٔاتِ ثُمَّ تَابُواْ مِنۢ بَعۡدِهَا وَءَامَنُوٓاْ إِنَّ رَبَّكَ مِنۢ بَعۡدِهَا لَغَفُورٞ رَّحِيمٞ﴾[١٥٣].

السادس: قراءة القرآن بالتدبر والاستماع إليه بإنصات﴿وَقَالَ مُوسَىٰ يَٰفِرۡعَوۡنُ إِنِّي رَسُولٞ مِّن رَّبِّ ٱلۡعَٰلَمِينَ﴾[١٠٤].

السابع: كثرة الذكر طرفي النهار مع الخشوع والتذلل ومحاولة إخفاء ذلك عن نظر الخلق ﴿وَٱذۡكُر رَّبَّكَ فِي نَفۡسِكَ تَضَرُّعٗا وَخِيفَةٗ وَدُونَ ٱلۡجَهۡرِ مِنَ ٱلۡقَوۡلِ بِٱلۡغُدُوِّ وَٱلۡأٓصَالِ وَلَا تَكُن مِّنَ ٱلۡغَٰفِلِينَ﴾[٢٠٥].

الثامن: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر،﴿وَإِذۡ قَالَتۡ أُمَّةٞ مِّنۡهُمۡ لِمَ تَعِظُونَ قَوۡمًا ٱللَّهُ مُهۡلِكُهُمۡ أَوۡ مُعَذِّبُهُمۡ عَذَابٗا شَدِيدٗاۖ قَالُواْ مَعۡذِرَةً إِلَىٰ رَبِّكُمۡ وَلَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ ﴿١٦٤﴾ فَلَمَّا نَسُواْ مَا ذُكِّرُواْ بِهِۦٓ أَنجَيۡنَا ٱلَّذِينَ يَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلسُّوٓءِ وَأَخَذۡنَا ٱلَّذِينَ ظَلَمُواْ بِعَذَابِۭ بَـِٔيسِۭ بِمَا كَانُواْ يَفۡسُقُونَ ﴿١٦٥﴾﴾ [١٦٤-١٦٥].

التاسع: الإكثار من العبادات وخاصة الصلاة وبهذا خُتمت السورة، ﴿إِنَّ ٱلَّذِينَ عِندَ رَبِّكَ لَا يَسۡتَكۡبِرُونَ عَنۡ عِبَادَتِهِۦ وَيُسَبِّحُونَهُۥ وَلَهُۥ يَسۡجُدُونَ﴾[٢٠٦].

أسأل من أنزل سورة "الأعراف" أن يجعلها حجة لنا لا علينا، وأن يداوي قلوبنا بدوائها، ويعالج جوارحنا بشفائها، إنه ولي ذلك والقادر عليه.

وصلى الله على نبينا محمد وعلى آله وصحبه وسلم.

كيف نقرأ سورة الأنفال ؟

الأنفال هذا هو اسمها الأشهر من زمن الصحابة حتى زمننا هذا، وسميت سورة بدر، فعن سعيد بن جبير قال: قلت لابن عباس ﷺ: الأنفال؟ قال: تلك سورة بدر[١].

وإنما أراد ابن عباس أنها في شأن بدر، وقد تتابع أهل العلم على ذلك، فقال ابن العربي عند تفسير قوله تعالى: ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِىَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٧]، قال: "هي من توابع ما تقدم وروابطه، فإن السورة هي سورة بدر كلها"[٢]. وقال الثعالبي: "ولا خلاف أن هذه السورة نزلت في شأن بدر وأمر غنائمه"[٣]. وقال ابن إسحاق:" أنزلت في أمر بدر الأنفال بأسرها"[٤].

ونقل ابن عاشور الاتفاق على ذلك في التحرير والتنوير فقال: "وقد اتفق رجال الأثر كلهم على أنها نزلت في غزوة بدر"[٥] .

والأنفال جمع نفل، وهو : الزيادة على الأصل[٦]، فالغنيمة: زيادة على النصر؛ لأن المطلوب الأول في المعركة النصر فالغنيمة زيادة عليها. **وهي نوعان: غنيمة وفيء.**

الغنيمة: ما يناله المسلمون من عدوهم بسعي وإيجاف خيل وركاب.

والفيء: ما ناله المسلمون من عدوهم من غير سعي ولا إيجاف خيل ولا ركاب.

وهو ضربان: أحدهما: ما انجلوا عنه، أي: هربوا عنه خوفاً من المسلمين، أو بذلوه للكف عنهم ، **والثاني:** ما أُخذ من غير خوف: كالجزية، وخراج الأرض، والعشور وهو ما يدفعه تجار الذمة ضريبة على ما يترددون به بين دار الصلح ودار الحرب.

---

(١) معالم التنزيل (٣١٣/٢).

(٢) أحكام القرآن(٣٨٧/٢).

(٣) الجواهر الحسان في تفسير القرآن (١١٢/٣).

(٤) التحرير والتنوير(٢٤٥/٩).

(٥) التحرير والتنوير(٢٤٥/٩).

(٦) ينظر : جامع البيان (١٠/١١).

فهذه تعريفات عجلى سنحتاج إليها ، ونعود للسورة وتدبر آياتها :

أولاً: حزبها، أي: "موضعها من المصحف العثماني"

الأنفال داخلة في حزب السبع الطوال باعتبارها هي وبراءة سورة واحدة، وموضوع حزب السبع الطوال يدور حول ثلث الأحكام، فالقرآن ثلاثة أثلاث: توحيد، وأحكام، وأخبار، وغالب هذه الأحكام تتعلق بالضرورات الخمس: الدين والنفس والعقل والعرض والمال، وأعظم هذه الضرورات هو حفظ الدين والنفس، ولا يكون ذلك إلا بالجهاد.

ثانياً: أين نزلت ومتى ؟ (موضعها المكاني والزماني)

هي سورة مدنية باتفاق[1]، نزلت عقب غزوة بدر التي كانت فاتحة الغزوات في تاريخ الإسلام وبداية النصر لجند الرحمن حتى سمّاها بعض الصحابة بسورة بدر التي سمّاها الله تعالى في القرآن الكريم بـ (الفرقان).

وقد سبق في السور الطوال التي سبقت الأنفال أن بيّن الله لنا أركان بناء المجتمع المسلم الذي يريده الله:

ففي البقرة بيّن أنه مجتمع يعظم ويتبع الوحي ولا يروغ عنه.

وفي آل عمران بيّن أن شعاره "عرفت فالزم، " فلا عمل إلا بعلم، ولا علم إلا بعمل.

وفي النساء هو مجتمع يدفع الظلم ويأباه خصوصاً مع الضعفاء والسفهاء.

وفي المائدة هو مجتمع لا ينقض العهد حتى مع الكافر بل يعزر العهد ويعظم شأنه.

وفي الأنعام بين أن رحى هذا المجتمع ومرتكزه الأعظم هو التوحيد.

وفي الأعراف هو مجتمع حسم أمره، عرف الحق فتبعه ولم يتردد بل قطع كل العوائق دونه.

جاءت بعد ذلك الأنفال، وقد تكوّن المجتمع المسلم بكافة فئاته وأطيافه وتكونت دولته، فذكرت سنن الله الكونية والشرعية في النصر والتمكين؛ لأن هذا المجتمع لابد له من عدو يتربص به ويرقب حين غرة منه فلابد له من قتال يدفع الصائل عنه، وحامية تذود عن الدين والعرض والأرض.

---

(١) زاد المسير لابن الجوزي (١٨٦٩/٢).

ثالثاً: فيم نزلت ؟ (مقصودها)

هو – والعلم عند الله – في سنن الله الربانية والمادية في النصر والتمكين، وبتعبير آخر هي في: تربية الله للطائفة المجاهدة المنصورة.

فالنصر سواء كان في جهاد الدفع أو الطلب لا يأتي هكذا بلا تراتيب، وإنما يحتاج إلى اتباع سنن الله في الأرض، وهذه السنن على نوعين:

١- سُنن ربّانية شرعية (وما النصر إلا من عند الله).

٢- وسُنن مادية كونية (وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة).

فلن ينتقل حال الأمة المسلمة من الذل إلى العزّ إلا بتغيير حال الأمة وفقاً للسنن الكونية والشرعية: ﴿ذَٰلِكَ بِأَنَّ ٱللَّهَ لَمْ يَكُ مُغَيِّرًا نِّعْمَةً أَنْعَمَهَا عَلَىٰ قَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا۟ مَا بِأَنفُسِهِمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴾[٥٣].

وعن علاقة اسمها بمقصودها، فقد سميت السورة بالأنفال لأن أكثر شيء يضيع النصر هو التكالب على الدنيا، سواء ظهرت هذه الدنيا بصورة مال أو منصب أو جاه أو نحو ذلك، فالأنفال هنا رمز الدنيا بشتى صورها، وقيل "الأنفال" وليس "الغنائم"؛ لأن أهل البلاء في الجهاد طلبوا زيادة خاصة لهم في قسمة المغانم مقابل قوة شكوتهم على العدو، وكأنهم رأوا أن هذا من حقهم، ولذا كرروا السؤال وألحوا في الطلب، هذا وهم صحابة رسول الله ﷺ، فجاء التنبيه الإلهي زاجرا عن مثل هذا التطلع للدنيا وزينتها.

رابعاً: تربية السورة للطائفة المجاهدة المنصورة:

نظمت السورة تأديبها للمؤمنين بتدرج عجيب بل معجز لا يكون مثله إلا من لطيف خبير سبحانه، وأعجب ما فيه للمتأمل هو باب التقديم والتأخير، وهذا هو السرّ الأعظم في تربية السورة، فمن بدأ في تربيته الجهادية بما بدأ الله به في (الأنفال) وأخر ما أخره الله في (الأنفال)، فقد أفلح وأنجح، ومن خبط حسب ما يرى بعقله وهواه فقد أقلح وأكلح. [١]

(١) والقلح صفار الأسنان ونتن الفم . ينظر: غريب الحديث (٢/٢٤٤) .

وهذا بيان لتدرج تربية الأنفال للمجاهدين حسب ترتيبه في هذه السورة العظيمة :

فأولاً: بدأت السورة بذكر سؤال الأصحاب عن الأنفال، وسميت السورة بـــذلك، فورود هذه الكلمة في الاسم وفي مستهل السورة تنبيه شديد إلى أن حضور مقصود الدنيا حين القتال والاختلاف على المتاع العاجل هو أعظم أسباب الفشل في قتال المؤمنين؛ لأن ذلك ينافي التقوى التي هي أعظم أسباب النصر الربانية؛ فكان أول وثاني أمر بدأت به السورة هو بالتقوى وإصــلاح ذات البين، ﴿يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ﴾[١]، وإذا غابت التقوى، فالنصر للأقوى.

ثانياً: جاء الشرط في مطلع السورة صريحاً؛ إن لم تكونوا مؤمنين، فلن تحققوا الغاية من قتالكم، ووصف الإيمان جاء مشروحاً بأمور ثلاثة:

التقوى / وإصـــلاح ذات البين / وطاعة الله والرســـول كما قال تعالى ﴿فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ﴾[١]. ولتحقيق هذا الإيمان لابد من التحقق بشروط خمسة:

١- الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ

٢- وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا

٣- وَعَلَى رَبِّهِمْ يتوَكَّلُونَ

٤- الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ

٥- وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ ينْفِقُونَ

فلا إيمان كامل إلا بها كاملة غير منقوصة ﴿أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُمْ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٤].

ثالثاً: جواب السؤال الوارد في مطلع السورة (يسألونك) لم يأت إلا في الآية (٤١) عند قوله تعالى ﴿ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ

﴿وَٱلۡيَتَـٰمَىٰ وَٱلۡمَسَـٰكِينِ وَٱبۡنِ ٱلسَّبِيلِ﴾، وفي هذا تربية للقائد وجنده من وجوه كثيرة، منها :

أ) أن السؤال قد يدل المربي على خلل في جنده، فليتنبه لذلك ولا يهمله.

ب) لا يلزم من ورود السؤال من الأفراد الإجابة الفورية عنه، بل قد يجب تأخير البيان لمصلحة شرعية أدركها المسؤول، ولا يجوز هنا التعنت من السائل وإلزام البيان دون تأخير فهذا خلاف ما أدبت به الأنفال أهل الجهاد.

ت) حين حصول خلخلة في الصف أو انزعاج عام، فعلى القائد والعالم أن يذكر بالعهد والميثاق الذي بين القائد وجنده، وكذا القواعد والأصول التي لا قيام لجهادهم إلا بها قبل المضي في أي نقاش يتعلق بالمسؤول عنه؛ ولذا بعد ذكر الله عز وجل للسؤال الذي نشأ عن انزعاج من بعض الصحابة في شأن الغنائم كما نص على ذلك سعد بن أبي وقاص وغيره من الصحابة رضوان الله عليهم[1] قال الله مذكراً بالأصل العظيم والميثاق الغليظ بينهم وبين الله: (قل الأنفال لله والرسول)، أي: حكمه لله والرسول، فليس لكم إلا السمع والطاعة لهما.

والجند يجب أن يذكروا بضرورة السمع والطاعة في المنشط والمكره وأنه لا جهاد إلا بها، وأن التخلص من هذا العهد بأنواع الحيل ليس من صفات المؤمنين بل ولا العقلاء المدركين لمآلات الأمور بعد النزاع والشقاق.

ث) كل خلل في صف الجهاد فمرجعه لخلل في التربية الإيمانية لدى أهل الجهاد، فالمؤمن لا يخلخل الصف أبداً ولا يوهن البنيان مطلقا، فمتى لحظ القائد والعالم ذاك في الصف، فليعد مباشرة إلى جنده مربياً لهم في قلوبهم وإيمانهم وخشيتهم من ربهم؛ ولذا لما حصل ما حصل في شأن الأنفال، قال الله للصحابة الكرام في أوائل ما أنزل عليهم في شأن الأنفال: ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَـٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَـٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَـٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقًّا لَّهُمۡ دَرَجَـٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٌ وَرِزۡقٌ كَرِيمٌ ۝٤﴾ [٢-٤].

(١) ينظر: تفسير القرآن العظيم (٤/٦- ٩).

خامساً: قسمت السورة أسباب النصر إلى قسمين: رباني ومادي.

وظاهر جدّاً في هذه السورة أن العناية بالسبب الأول أي- الرباني- هو الأول دوماً لا الثاني ،فلا يتقدمه شيء، ومتى دعا داعي الجهاد ولزم القيام إليه على طائفة من الناس، تكون التربية الإيمانية على التوحيد الخالص لله وعلى مكارم الأخلاق والتزام حكم الله مهما خالف الهوى ملازمةً للقيام بالجهاد مصاحبةً له لا تتأخر عنه بحال مهما كانت الأسباب؛ ولذ كان من أدب الأنفال للصحابة الكرام أن كان من أول آياتها ﴿إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا﴾[٢ - ٤].

بل إن نصف السورة الأول إنما هو في تقريره وبيان صوره وثمرته والتحذير مما يناقضه، وهذا أوان إيضاحه وبيان كيفية التحقق به ونبذ ما يضاده:

أ) النصر الرباني:

له صور كثيرة أبانتها الأنفال، منها:

١-أن يختار لك ما تكره وتراه حتفك وهلاك من معك، ويشركك في هذا الرأي وهذه الكراهية (فريق من المؤمنين) ليسوا منافقين ولا خوارين بل عقلاء من ذوي الرأي عندك، لكن أقدار الله تسوقك إليه سوقاً، فترى ما تكره بين يديك فإما العزيمة أو النَّكْص، وفي مثل هذا تلوح الإرادة الربانية، والواجب هنا ما دلّت عليه الأنفال وثبت من سيرته ﷺ: المشورة أولاً والعزيمة ثانياً.

﴿كَمَآ أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِنۢ بَيْتِكَ بِٱلْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ لَكَٰرِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَٰدِلُونَكَ فِى ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى ٱلْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾﴾[٥-٨].

مبشرات وقرائن نصر تتخلل بين رُكام المخوِّفات والمقلقات لا تخفى على البصير:

كرؤى صالحة متتابعة ﴿إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ

﴿كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ﴾[٤٣].

أو حال تسر كانشراح صدور أهل الإيمان والصدق للقتال أو لغيره وتأمل ذلك في الأنفال ﴿يُجَٰدِلُونَكَ فِي ٱلْحَقِّ بَعْدَ مَا﴾، فالحق هنا هو الخروج لمقابلة النفير لا العير، والتبين هو القرائن التي أدرك بها كبار الصحابة أن النبي ﷺ يريد مقاتلة جيش قريش وأنهم منصورون بوعد الله، يقول ابن عاشور مقرراً هذا المعنى بكلام متين له: "وهذا التبيّن هو بيّنٌ في ذاته سواء شعر به كلهم أو بعضهم فإنه بحيث لا ينبغي الاختلاف فيه، فإنهم كانوا عَرَباً أذكياء، وكانوا مؤمنين أصفياء، وقد أخبرهم النبي ﷺ بأن الله ناصرهم على إحدى الطائفتين: طائفة العير أو طائفة النفير، فنصرهم إذن مضمون، ثم أخبرهم بأن العير قد أخطأتهم، وقد بقي النفير، فكان بيّناً أنهم إذا لقوا النفير ينصرهم الله عليه، ثم رأوا كراهة النبي ﷺ لما اختاروا العير.. فذلك معنى تبيّن الحق، ومَن خفي عليه هذا التبيّن من المؤمنين، لم يعذره الله في خفائه عليه؛ لوضوح الدليل وجلائه"[١].

ومن المبشرات ملاحظة الوحدة في الكلمة وقوة بنيان الصف ﴿هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾﴾[٦٢-٦٣].

ومن هذه المبشرات التي تدل على التأييد: النعاس الذي يدل على الطمأنينة، والمطر الذي اغتسلوا به من الجنابة، وثبت الأرض تحت أقدامهم، والشعور والإحساس النفسي والمادي أن الله معنا ﴿فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ﴾[١٧]، وأنه سبحانه يمكر لنا مقابل مكر دهاة الأرض علينا كما قال تعالى ﴿وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ ٱللَّهُ ۖ وَٱللَّهُ خَيْرُ ٱلْمَٰكِرِينَ﴾ [٣٠]، وغيرها من القرائن والمبشرات.

---

(١) التحرير والتنوير(٩/٢٦٧).

٢- **ومن صور النصر الرباني: الرعب الذي يقذفه الله في قلوب أعدائهم،** قال تعالى: ﴿سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ﴾[١٢] آية ١٢، وفي الصحيحين قال ﷺ "**نصرت بالرعب مسيرة شهر**"(١).

وهذا وعد ثابت لا يتخلف، فإذا تخلفت هذه الصورة من صور النصر الرباني، فنزع الرعب من قلوب أعدائنا وأصاب أتباعنا؛ فلابد من البحث عن مكامن هذا الداء وأسبابه ثم حسمها حسماً لا يترك منها قطميراً ولا نقيراً.

٣-ومن صور التأييد نزول الملائكة للقتال مع المؤمنين:

وشرط هذه كثرة الاستغاثة بالله (إذ تستغيثون ربكم)، فلما كنتم على هذه الحال، كان الجزاء (فاستجاب لكم أني ممدكم..).

ب) **النصر المادي** : أكدت الأنفال على لزوم إعدادها، وسأذكر ما نصت الجهاد على لزوم إعداده قبل إعلان الجهاد:

١. مراعاة موازين القوى بينهم وبين أعدائهم في العدد والعُدة :

فالقتال لا يشرع إذا كانت موازين القوى بين الفئة المؤمنة والفئة الكافرة لا يتحقق معه مقصود الجهاد وهو حفظ بيضة المسلمين أو التنكيل بالمعتدي الظالم أو إزالة الحُجب بين الناس ودين رب العالمين، والأنفال قاطعة للجدل في هذه القضية بصورتها العامة المجملة، ويبقى الجدل في المناط الذي يقال عند تحققه يشرع القتال وعند عدمه لا يشرع.

والمناط الذي صرحت به الجهاد هو العدد وأشارت إلى مناط العُدة فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا النَّبِيُّ حَرِّضِ الْمُؤْمِنِينَ عَلَى الْقِتَالِ إِن يَكُن مِّنكُمْ عِشْرُونَ صَابِرُونَ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ يَغْلِبُوا أَلْفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا بِأَنَّهُمْ قَوْمٌ لَّا يَفْقَهُونَ ﴿٦٥﴾ الْآنَ خَفَّفَ اللَّهُ عَنكُمْ وَعَلِمَ أَنَّ فِيكُمْ ضَعْفًا فَإِن يَكُن مِّنكُم مِّائَةٌ صَابِرَةٌ يَغْلِبُوا مِائَتَيْنِ وَإِن يَكُن مِّنكُمْ أَلْفٌ يَغْلِبُوا أَلْفَيْنِ بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ ﴿٦٦﴾﴾[٦٥-٦٦].

---

(١) البخاري ح(٣٣٥)، مسلم ح(٥٢٣).

أما العُدة فجاء مناطها ﴿تُرۡهِبُونَ بِهِۦ عَدُوَّ ٱللَّهِ وَعَدُوَّكُمۡ﴾ [٦٠]، وهو مناط مستنبط وليس بصريح بخلاف مناط العدد، فقد كان العدد هو الأكثر تأثيرا في المعارك؛ لأن العدة متشابهة في الأغلب بين المسلمين في زمن النبي ﷺ وبين أعدائهم.

لكن في هذا الزمن اختلف الحال، فيعلم كل عاقل أن ألف مقاتل بطائراتهم وقاذفاتهم وصواريخهم مما نرى ونعلم عنه أقوى من مائة ألف مقاتل معهم أسلحة خفيفة .

ولا يقال هذا للتخويف من جيوش الشرق أو الغرب، لكن لمعرفة الحكم الشرعي في الجهاد ومنابذة العدو الغاصب.

وهذا تفصيل مبني على جمع آيات الجهاد مع كلام أهل العلم عليها :

المرحلة الأولى

يقول ابن تيمية في كلام متين له يبين فيه تدرج آيات الجهاد: "**فأما (قبل براءة وقبل بدر) فقد كان مأموراً بالصبر على أذاهم والعفو عنهم .**

المرحلة الثانية

وأما (بعد بدر وقبل براءة) فقد كان يقاتل من يؤذيه ويمسك عمن سالمه كما فعل بابن الأشرف وغيره ممن كان يؤذيه، فمعركة (بدر) كانت أساس عز الدين، (وفتح مكة) كانت كمال عز الدين، فكانوا قبل بدر يسمعون الأذى الظاهر ويؤمرون بالصبر عليه، وبعد بدر يُؤذَون في السرّ من جهة المنافقين وغيرهم، فيؤمرون بالصبر عليه .

المرحلة الثالثة

وفي تبوك أُمروا بالإغلاظ للكفار والمنافقين، فلم يتمكن بعدها كافر ولا منافق من أذاهم في مجلس خاص ولا عام، بل مات بغيظه؛ لعلمه بأَنَّهُ يُقتل إذا تكلم، وقد كان بعد بدر لليهود استطالة وأذى للمسلمين إلى أن قُتل كعب بن الأشرف، قال محمد بن إسحاق في حديثه عن محمد بن مسلمة قال: فأصبحنا وقد خافت اليهود لوقعتنا بعدوّ الله، أي: كعب بن الأشرف؛ فليس بها يهودي إلا وهو يخاف على نفسه"[١].

---

(١) الصارم المسلول (٢٢٠).

وقد مرَّ الجهاد في هذه الشريعة الخاتم بأربع مراحل :

المرحلة الأولى: كان الجهاد في أول الأمر منهياً عنه، مأموراً بضده من الكف والعفو والصفح والصبر ونحو ذلك.

وضابط هذه المرحلة: في حال الضعف الشديد بحيث لا يمكن معها مناكفة العدو ولا إيقاع الأذى به، كحال النبي ﷺ قبل الهجرة، يقول ابن القيم واصفا هذه المرحلة: "في حال كون انتصارهم ذريعة إلى وقوع ما هو أعظم مفسدة من مفسدة الإغضاء واحتمال الضيم، ومصلحة حفظ نفوسهم ودينهم وذريتهم راجحة على مصلحة الانتصار والمقابلة"(١).

يقول أبو السعود : "وقد نزلت **نيف وسبعون آية تنهى عن الجهاد** في ذاك الحين"(٢).

ويعني بهذه الآيات أمثال قوله تعالى: ﴿أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ﴾[النساء:٧٧]، وقوله: ﴿فَٱعْفُواْ وَٱصْفَحُواْ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦٓ﴾[البقرة:١٠٩]، وقوله: ﴿فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ﴾[الحجر:٨٥]، وقوله: ﴿خُذِ ٱلْعَفْوَ وَأْمُرْ بِٱلْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ ٱلْجَٰهِلِينَ﴾ [الأعراف:١٩٩]، وقوله: ﴿وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا﴾ [المزمل:١٠]. وغيرها كثير.

يقول **ابن القيم** في زاد المعاد وهو يبين الحكمة من ذلك:

الوجه السادس: "أنه تعالى نهى المؤمنين في مكة عن الانتصار باليد، وأمرهم بالعفو والصفح، **لئلا يكون انتصارهم ذريعة إلى وقوع ما هو أعظم مفسدة من مفسدة الإغضاء واحتمال الضيم، ومصلحة حفظ نفوسهم ودينهم وذريتهم راجحة على مصلحة الانتصار والمقابلة**"(٣).

---

(١) إعلام الموقعين (١١١/٣).

(٢) تفسير أبي السعود : إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم (١٠٨/٦).

(٣) (١٣٨/٣).

ويقول شيخ الإسلام في كلام ماتع له في الصارم المسلول[1]:

"فحيث ما كان للمنافق ظهور يخاف من إقامة الحد عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية (ودع أذاهم)، كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح، وحيث ما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله: (جاهد الكفار والمنافقين)".

المرحلة الثانية: الإذن بالقتال، أي: مشروعيته دون إيجاب.

وذلك في قوله تعالى: ﴿أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَـٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ﴾[الحج:٣٩]، وفي قوله (أُذِنَ) دلالة على أن هناك منعاً سابقاً.

وضابط هذه المرحلة: هو حال المسلمين حين نزول هذه الآيات أو ما يسمى (زمن التنزل) أو (متى نزلت)، وهذه الآيات نزلت في أواخر السنة الأولى قبل واقعة بدر الكبرى، وقد كان المسلمون في حال ضعف لكن ليس بالشديد، بل لديهم قوة محدودة قادرة على مناكفة العدو وإيقاع الأذى به مع أن عدوهم أقوى منهم، فهاهنا تشرع المقاومة من غير إيجاب.

يقول الإمام الأمين الشنقيطي في أضواء البيان:

"وهذه الآية هي **أول آية نزلت في الجهاد** كما قال به جماعات من العلماء، وليس فيها من أحكام الجهاد إلا مجرد الإذن لهم فيه... قالوا: ولما كان الجهاد فيه هذا من المشقة وأراد الله تشريعه شرعه تدريجًا، فأذن فيه أولاً من غير إيجاب"[2].

المرحلة الثالثة: الأمر بقتال من قاتلهم

وذلك في قوله تعالى: ﴿وَقَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ﴾[البقرة:١٩٠].

وضابطها: هو حال التنزل، أي: حال المسلمين حين نزول هذه الآيات، وهذه الآيات نزلت قبيل عمرة القضاء في ذي القعدة سنة 7 هـ عوضًا عن العمرة التي صُرفوا عنها وفقًا

---

(١) (٣٥٩).

(٢) (٢٦٣/٥).

لشروط صلح الحديبية، فهي في الإذن بالقتال للمحرمين في الأشهر الحرم إذا فوجئوا بالقتال بغيا وعدوانا، فهي متصلة بما قبلها؛ لأنّ الآية السابقة بيّنت أنّ الأهلة مواقيت للنّاس والحج، والحج في أشهر هلالية مخصوصة، كان القتال فيها محرّما في الجاهلية، وهذا هو سياق الآيات:

قال الله تعالى: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ وَلَا تَعْتَدُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُعْتَدِينَ ﴿١٩٠﴾ وَٱقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۚ وَلَا تُقَٰتِلُوهُمْ عِندَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَٰتِلُوكُمْ فِيهِ ۖ فَإِن قَٰتَلُوكُمْ فَٱقْتُلُوهُمْ ۗ كَذَٰلِكَ جَزَآءُ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩١﴾ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٩٢﴾ وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ لِلَّهِ ۖ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَلَا عُدْوَٰنَ إِلَّا عَلَى ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿١٩٣﴾ ٱلشَّهْرُ ٱلْحَرَامُ بِٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ وَٱلْحُرُمَٰتُ قِصَاصٌ ۚ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُوا۟ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾ [البقرة: ١٩٠-١٩٤].

يقول ابن عباس: "هذه الآية نزلت في صلح الحديبية، وذلك أن رسول الله ﷺ لما صدّ عن البيت، ثم صالحه المشركون، على أن يرجع عامه ثم يأتي القابل ويخلوا له مكة ثلاثة أيام، فيطوف بالبيت ويفعل ما يشاء، فلما كان العام المقبل تجهز هو وأصحابه لعمرة القضاء، وخافوا ألا تفي لهم قريش بذلك، وأن يصدوهم عن المسجد الحرام ويقاتلوهم، وكره أصحابه قتالهم في الشهر الحرام في الحرم، فأنزل الله هذه الآية :﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ الآية"[1].

فضابط هذه المرحلة: في حال قوة المسلمين بحيث تقارب قوتهم قوة عدوهم المقاتل لهم.

وحكمها: أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم.

قال الأمين الشنقيطي: "ثم لما استأنست به نفوسهم بسبب الإذن فيه، أوجب عليهم قتال من قاتلهم دون من لم يقاتلهم بقوله: ﴿وَقَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَكُمْ﴾ [البقرة: ١٩٠] "[2].

---

(١) معالم التنزيل (١/٢٣٧).

(٢) أضواء البيان (٥/٢٦٣).

المرحلة الرابعة: الأمر بقتال الكفار جميعاً.

وذلك في آية السيف في قوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾ [التوبة:٥]. وآية السيف نزلت بعد، يقول الأمين الشنقيطي موضحاً: "ثم لما استأنست نفوسهم بإيجابه في الجملة أوجبه عليهم إيجاباً عاماً جازماً في آيات من كتابه كقوله تعالى: ﴿فَإِذَا انسَلَخَ الْأَشْهُرُ الْحُرُمُ فَاقْتُلُوا الْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَاحْصُرُوهُمْ وَاقْعُدُوا لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ﴾[التوبة:٥]،وقوله تعالى﴿وَقَاتِلُوا الْمُشْرِكِينَ كَافَّةً كَمَا يُقَاتِلُونَكُمْ كَافَّةً﴾[التوبة:٣٦] "[1].

لكن هذا القتال ليس مطلقاً بل قيد بقيود، منها:

أن القتال يبدأ بالكفار الأدنى مكاناً منّا كما قال تعالى ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ﴾ [التوبة:١٢٣]، قال قتادة والضحاك في هذه الآية: الأدنى فالأدنى[2].

وهذه المراحل ليس بعضها ناسخاً لبعض، بل هي جميعاً باقية لكن تنزل كل مرحلة على الزمن الذي يشابهها، فقد يحتاج إليها في بعض العصور والأزمان كما هو ملاحظ، وقد تقدم كلام شيخ الإسلام في الصارم المسلول: ".. أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكف عنهم والصفح، وحيث ما حصل القوة والعز خوطبنا بقوله (جاهد الكفار والمنافقين). |

قال شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله-:

"فلما أتى الله بأمره الذي وعده من ظهور الدين، وعز المؤمنين أمر رسوله بالبراءة إلى المعاهدين، وبقتال المشركين كافة، وبقتال أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون ، فكان ذلك عاقبة الصبر والتقوى اللذين أمرهم بهما في أول الأمر، وكان إذ ذاك لا يؤخذ من

---

(١) أضواء البيان (٥/٢٦٣).

(٢) الدر المنثور (٤/٣٢٤).

أحد من اليهود الذين بالمدينة ولا غيرهم جزية، وصارت تلك الآيات في حق كل مؤمن مستضعف لا يمكنه نصر الله ورسوله بيده ولا بلسانه، فينتصر بما يقدر عليه من القلب ونحوه، وصارت آية الصغار على المعاهدين في حق كل مؤمن قوي، يقدر على نصر الله ورسوله بيده أو لسانه.

وبهذه الآية ونحوها كان المسلمون يعملون في آخر عمر رسول الله ﷺ، وعلى عهده خلفائه الراشدين، وكذلك هو إلى قيام الساعة؛ لا تزال طائفة من هذه الأمة قائمين على الحق، ينصرون الله ورسوله النصر التام.

فمن كان من المؤمنين بأرض هو فيها مستضعف، أو في وقت هو فيه مستضعف: فليعمل بآية الصبر والصفح عمن يؤذي الله ورسوله، من الذين أوتوا الكتاب والمشركين.

وأما أهل القوة: فإنما يعملون بآية قتال أئمة الكفر الذين يطعنون في الدين، وبآية قتال الذين أوتوا الكتاب حتى يعطوا الجزية عن يد وهم صاغرون."(١).

وقال الشيخ ابن باز -رحمه الله-:

"وذكر بعض أهل العلم أن آية السيف ليست ناسخة ولكن الأحوال تختلف، وهكذا قوله جل وعلا: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾[التوبة:٧٣] الآية، وقوله سبحانه: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَٰتِلُوا۟ ٱلَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ ٱلْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا۟ فِيكُمْ غِلْظَةً وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[التوبة:١٢٣]، وهكذا قوله سبحانه: ﴿وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ﴾ [٣٩] .

فهذه الآيات وما في معناها: قال بعض أهل العلم ليست ناسخة لآيات الكف عمن كف عنا وقتال من قاتلنا، وليست ناسخة لقوله: (لَا إِكْرَاهَ فِي الدِّينِ)، **ولكن الأحوال تختلف فإذا قوي المسلمون وصارت لهم السلطة والقوة والهيبة، استعملوا آية السيف وما جاء في معناها، وعملوا بها، وقاتلوا جميع الكفار حتى يدخلوا في دين الله، أو يؤدوا الجزية.**

وإذا ضعف المسلمون ولم يقووا على قتال الجميع: فلا بأس أن يقاتلوا بحسب قدرتهم، ويكفوا عمن كف عنهم، إذا لم يستطيعوا ذلك، فيكون الأمر إلى ولي الأمر،

---

(١) "الصارم المسلول" (ص٢٢١).

إن شاء قاتل وإن شاء كف، وإن شاء قاتل قوما دون قوم على حسب القوة والقدرة والمصلحة للمسلمين، لا على حسب هواه وشهوته، ولكن ينظر للمسلمين وينظر لحالهم وقوتهم ... ، وهذا القول ذكره أبو العباس شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله — واختاره ...، وهذا القول اختاره جمع من أهل العلم، واختاره الحافظ ابن كثير - رحمه الله— ، **وهذا القول أظهر وأبين في الدليل**؛ لأن القاعدة الأصولية أنه لا يصار إلى النسخ إلا عند تعذر الجمع بين الأدلة، والجمع هنا غير متعذر، كما تقدم بيانه " انتهى باختصار[١].

وهذا نقل لكلام محررٍ عن الإمام شمس الدين ابن القيم يقول فيه:

" فصل في ترتيب سياق هديه ﷺ مع الكفار والمنافقين من حين بُعث إلى حين لقي الله ﷻ :

١) أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى أن يقرأ باسم ربه الذي خلق ، وذلك أول نبوته فأمره أن يقرأ في نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ.

٢) ثم أنزل عليه (يا أيها المدثر * قم فأنذر) فنبأه بقوله (اقرأ) وأرسله بـ (يا أيها المدثر).

٣) ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين.

٤) ثم أنذر قومه.

٥) ثم أنذر من حولهم من العرب.

٦) ثم أنذر العرب قاطبة.

٧) ثم أنذر العالمين .

فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية، ويؤمر بالكف، والصبر، والصفح.

٨) ثم أذن له في الهجرة وأذن له في القتال.

٩) ثم أمره أن يقاتل من قاتله ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله.

١٠) ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله له"[٢].

---

(١) مجموع الفتاوى لابن باز (٣/ ١٨٩-١٩٤).

(٢) زاد المعاد (١٤٣/٣).

وكما سبق في آيات الجهاد فهذه المراحل أيضاً ليس بعضها ناسخاً لبعض، بل هي جميعاً باقية لكن تنزل كل مرحلة على الزمن الذي يشابهها، فقد يحتاج إليها في بعض العصور والأزمان كما هو ملاحظ.

وبهذا يحذو المرءُ في جهاده حذو النبي ﷺ دون جفاء أو تفريط، ويقع الحافرُ على الحافر بتوفيق الله له.

٢- ومن أسباب النصر المادي : تآلف القلوب، ووحدة الكلمة، وتراص الصفوف

وهذه سنة كونية، وهي مع أنها مأمور بها شرعاً فهي من أبرز مظاهر النصر المادي، فالجيش المتنازع المفكك لا ينتصر ﴿وَأَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُواْ فَتَفْشَلُواْ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْۖ وَٱصْبِرُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ﴾[٤٦]، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ حَسْبُكَ ٱللَّهُ وَمَنِ ٱتَّبَعَكَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ﴾. فقضية تراص الصفوف من أهم الأسباب المادية التي تصنع النصر، فالمؤمنون مهما اختلفت أجناسهم أمة واحدة، وهنا يظهر -بعد توفيق الله- حنكة القائد في حماية صفوفه من التصدع.

ومن أظهر أسباب التصدع في هذا الزمن كثرة تدخل الأتباع فيما لا يعنيهم، وتداول القيل والقال بينهم فيما يحسنون وما لا يحسنون؛ ولذا كان لزاما على القائد أن يشغل جنده بما ينفعهم حتى لا يشغلوه بما يضره ويضرهم.

٣- القيام بواجب النصرة لإخوانهم المجاهدين ممن وجبت عليهم النصرة بأموالهم أو بأنفسهم :

تقدم في الأنفال ذكر صفات المؤمنين، ويلحظ أن الآيات في بداية السورة وصفت المؤمنين {إنما المؤمنون الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم – إلى قوله – لهم درجات عند ربهم ومغفرة ورزق كريم} آية ٢-٤. وفي ختام السورة جاء وصف المؤمنين أيضاً ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّاۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾[٧٤] فهؤلاء مؤمنون: يهاجرون ويجاهدون ويؤون وينصرون.

○ **فهناك فرق بين صفات المؤمنين في مطلع السورة وصفاتهم في آخرها :**

ففي الآيات (٢ ـ ٤) : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَى رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنْفِقُونَ (٣) أُولَئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَهُمْ دَرَجَاتٌ عِنْدَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ﴾

فهي صفات إيمانية يتحلى بها المؤمنون الذين يعظمون الله ويعظمون كلامه ولا يتوكلون إلا عليه، وجاءت في القسم الأول وهو قسم (السنن الربّانية).

أما الآية (٧٤) : ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾ .

فأعطت صفات المؤمنين المناسبة للنصرة المادية من الهجرة والجهاد ونصر المستضعفين وإيوائهم ، وجاءت في القسم الثاني للسورة وهو قسم (السنن المادية) .

وهكذا مثلت صفات المؤمنين في السورة التوازن بين سُنن النصر الربانية والمادية.

سادساً : نداءات سورة الأنفال

في السورة ست نداءات إلهية عظيمة للمؤمنين:

النداء الأول: التحذير من الفرار من المعركة والوعيد للمنهزمين أمام الأعداء بالعذاب الشديد، كما قال تعالى ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ زَحۡفٗا فَلَا تُوَلُّوهُمُ ٱلۡأَدۡبَارَ﴾[١٥] إلى أن قال : ﴿وَمَنْ يُوَلِّهِمْ يَوْمَئِذٍ دُبُرَهُ إِلَّا مُتَحَرِّفًا لِقِتَالٍ أَوْ مُتَحَيِّزًا إِلَى فِئَةٍ فَقَدْ بَاءَ بِغَضَبٍ مِنَ اللَّهِ وَمَأْوَاهُ جَهَنَّمُ وَبِئْسَ الْمَصِيرُ﴾ [الأنفال : ١٦].

النداء الثاني : الأمر بالسمع والطاعة لأمر الله وأمر الرسول، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَوَلَّوۡاْ عَنۡهُ وَأَنتُمۡ تَسۡمَعُونَ﴾[٢٠].

النداء الثالث: بيان أن ما يدعو إليه الرسول هو العزة والسعادة في الدنيا والآخرة،

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱسۡتَجِيبُواْ لِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ إِذَا دَعَاكُمۡ لِمَا يُحۡيِيكُمۡۖ وَٱعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَحُولُ بَيۡنَ ٱلۡمَرۡءِ وَقَلۡبِهِۦ وَأَنَّهُۥٓ إِلَيۡهِ تُحۡشَرُونَ﴾[٢٤].

النداء الرابع: بيان أن إفشاء سر الأمة للأعداء هو خيانة لله ورسوله ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَخُونُواْ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ وَتَخُونُوٓاْ أَمَٰنَٰتِكُمۡ وَأَنتُمۡ تَعۡلَمُونَ﴾[٢٧].

النداء الخامس: التنبيه إلى ثمرة التقوى، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَتَّقُواْ ٱللَّهَ يَجۡعَل لَّكُمۡ فُرۡقَانٗا وَيُكَفِّرۡ عَنكُمۡ سَيِّـَٔاتِكُمۡ وَيَغۡفِرۡ لَكُمۡۗ وَٱللَّهُ ذُو ٱلۡفَضۡلِ ٱلۡعَظِيمِ﴾[٢٩].

النداء السادس: بيان طريق العزة وأسس النصر بالثبات والصبر واستحضار عظمة الله تعالى والاعتصام بالمدد الروحي الذي يعين على الثبات، ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِذَا لَقِيتُمۡ فِئَةٗ فَٱثۡبُتُواْ وَٱذۡكُرُواْ ٱللَّهَ كَثِيرٗا لَّعَلَّكُمۡ تُفۡلِحُونَ﴾[٤٥].

سابعاً : ختام السورة

من لطائف الأنفال أنها بدأت بالإيمان وخُتمت بالإيمان، وبدأت بالمغفرة والرزق الكريم وخُتمت أيضاً بالمغفرة والرزق الكريم، وهما من أعظم ثمرات الجهاد:

ففي أولها ﴿إِنَّمَا ٱلۡمُؤۡمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتۡ قُلُوبُهُمۡ وَإِذَا تُلِيَتۡ عَلَيۡهِمۡ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتۡهُمۡ إِيمَٰنٗا وَعَلَىٰ رَبِّهِمۡ يَتَوَكَّلُونَ ۝٢ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقۡنَٰهُمۡ يُنفِقُونَ ۝٣ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُمۡ دَرَجَٰتٌ عِندَ رَبِّهِمۡ وَمَغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[٢-٤].

وفي ختامها ﴿وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُؤۡمِنُونَ حَقّٗاۚ لَّهُم مَّغۡفِرَةٞ وَرِزۡقٞ كَرِيمٞ﴾[٧٤].

اللهم إنا نسألك إيماناً كاملاً ونصراً تاماً ومغفرة ورزقاً كريماً ،،

كيف نقرأ سورة التوبة ؟

سورتا الأنفال والتوبة جاءتا متتاليتين لغاية عظمى مع أن المسافة الزمنية بين نزولهما طويلة، فالأنفال في غزوة بدر في السنة الثانية بينما التوبة في السنة التاسعة، **فتلك أول غزوة وهذه آخر غزوة**، وهذه الغاية أنهما يرسمان الخط البياني لحال المجتمع المسلم بين أول معركة وآخر معركة؛ لنلحظ الفرق بين الحال أولاً والحال أخيراً حين امتثل المسلمون أمر الله وأمر رسوله ﷺ الوارد في هاتين السورتين العظيمتين امتثالا حقيقياً.

"بدرٌ كانت أساس العِزّ ، والفتحُ كماله"

يقول ابن تيمية في كلام متين له يبين فيه تدرج آيات الجهاد: "**فأما (قبل براءة وقبل بدر) فقد كان مأموراً بالصبر على أذاهم والعفو عنهم، وأما بعد (بدر وقبل براءة) فقد كان يقاتل من يؤذيه ويمسك عمن سالمه كما فعل بابن الأشرف وغيره ممن كان يؤذيه، فمعركة (بدر) كانت أساس عز الدين، (وفتح مكة) كانت كمال عز الدين**"[١].

وقد سبق في مبحث (كيف نقرأ الأنفال) بيان مسهب لمراحل الجهاد وحكم كل مرحلة كما ورد في القرآن والسنة والسيرة.

وسورة براءة تنزل فيها آية السيف، وهي آخر مراحل الجهاد، وفي براءة نزل الأمر بقتال كل الكافرين سواء بدأ بقتالنا أو لم يبدأ، لكنه قبل القتال يخيرهم بين أمور ثلاثة: الإسلام، أو الجزية، أو القتال.

قال الله تعالى في آية السيف:

﴿فَإِذَا ٱنسَلَخَ ٱلْأَشْهُرُ ٱلْحُرُمُ فَٱقْتُلُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَيْثُ وَجَدتُّمُوهُمْ وَخُذُوهُمْ وَٱحْصُرُوهُمْ وَٱقْعُدُوا۟ لَهُمْ كُلَّ مَرْصَدٍ ۚ فَإِن تَابُوا۟ وَأَقَامُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَخَلُّوا۟ سَبِيلَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾[٥]. وفي معناها آية براءة الأخرى، قال تعالى: ﴿قَـٰتِلُوا۟

---

(١) الصارم المسلول (٢٢٠).

﴿ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ صَٰغِرُونَ﴾[٢٩]. وهذا في حال تمام قوة المسلمين فيخيرون الناس بين هذه الثلاثة، فإما الإسلام وليس المقصود أن يدخلوا جميعهم في الإسلام، بل من أراد أن يبقى على دينه فله ذلك فلا إكراه في الدين، لكن المقصود دخولهم تحت مظلة حكم وعدل الإسلام، أو الجزية، أو القتال، والقتال في الإسلام ليس كغيره بل كله عدل ورحمة بالإنسان والحيوان والشجر، وهذه أمم كاملة في شرق الأرض وغربها من الفرس، والروم، والهند، والسند، والبربر، والقبط، والترك، والتتر، وصل إليهم الإسلام فاعتنقوه وبذلوا في سبيله كل غال ونفيس بل بذلوا المهج والولد وأصبح هو دينهم لا يرضون به بدلاً بطوع من دون إكراه، ولكن من طغى وتجبر وعلى عباد الله بغى وتكبر فدواؤه في هذه السورة ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِيُّ جَٰهِدِ ٱلۡكُفَّارَ وَٱلۡمُنَٰفِقِينَ وَٱغۡلُظۡ عَلَيۡهِمۡۚ وَمَأۡوَىٰهُمۡ جَهَنَّمُۖ وَبِئۡسَ ٱلۡمَصِيرُ﴾[٧٣].

أولاً: أسماء سورة براءة

هذه السورة أكثر سور القرآن أسماءً عدا الفاتحة؛ وذلك لعظيم موضوعها وخطره:

فأشهر أسمائها (براءة)؛ سميت به السورة في كلام أكثر السلف، وكذا في أكثر المصاحف، وفي الصحيح قال أبو هريرة: "**فأذّن معنا علي بن أبي طالب في أهل منى ببراءة**"(١)، وبذلك ترجمها البخاري في "صحيحه.

وتسمى أيضاً "التوبة" في كلام الصحابة والسلف وفي مصاحف كثيرة، وترجم لها الترمذي في "جامعه" باسم التوبة(٢).

ووقع هذان الاسمان معاً في "صحيح البخاري"، قال زيد بن ثابت: "فتتبعت القرآن حتى وجدت آخر التوبة مع أبي خزيمة الأنصاري وهي قوله تعالى : ﴿لَقَدۡ جَآءَكُمۡ رَسُولٞ

---

(١) البخاري ح(٤٦٥٦).

(٢) التحرير والتنوير (١٠/٩٥).

﴿مِّنْ أَنفُسِكُمْ﴾[١٢٨] حتى خاتمة البراءة"[١].

وسبب تسميتها بالتوبة : ورود ذكر كلمة (التوبة) في هذه السورة (١٧ مرة) أكثر من أية سورة أخرى في القرآن كله ، فقد وردت في البقرة (١٣ مرة)، والنساء (١٢ مرة)، وفي المائدة (٥ مرات) .

وقد اعترض عدد من الصحابة على تسميتها بالتوبة ، ففي الصحيحين[٢]عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباسٍ: سورةُ التَّوبة ؟ فقال : بل هي الفَاضِحَةُ ، مازالتْ تنزل{ومنهم}، {ومنهم} حتى ظَنُّوا أن لا يبقي أحدٌ إلا ذُكِرَ فيها .

وأخرج ابن أبي شيبة عن حذيفة رضي الله عنه قال : التي تسمون سورة التوبة هي : سورة العذاب .

وأخرج أبو عوانة عن ابن عباس رضي الله عنهما ، أن عمر رضي الله عنه قيل له : سورة التوبة قال : **هي إلى العذاب أقرب ما أقلعت عن الناس حتى ما كادت تدع منهم أحدا.**

وأخرج ابن مردويه عن زيد بن أسلم ، أن رجلا قال لعبد الله : سورة التوبة فقال ابن عمر رضي الله عنه : وأيتهن سورة التوبة ؟ فقال : براءة ، فقال ابن عمر : وهل فعل بالناس الأفاعيل إلا هي ما كنا ندعوها إلا المقشقشة .

وتسميتها بالتوبة ثابت عن زيد بن ثابت وفي كلام كثير من السلف وهو اشهر أسمائها في المصاحف المكتوبة ، وسببه كما سبق أن كلمة "التوبة" تكررت فيها (١٧) مرة ، وهو ما لم يتكرر في أي سورة أخرى .

وسميت أيضاً : المقشقِشة، والفاضِحة، والمنقِرة،، والحافِرة، والمثيرة، والمنكلة، والمدمدمة، والمخزية، والعذاب، والبَحوث، ومعاني هذه الأسماء ظاهرة من ألفظها.

(١) البخاري ح(٤٦٧٩).

(٢) البخاري (١١٣/٥) و(١٨٣/٦) ، ومسلم (٢٤٥/٨).

ثانياً : خصيصة سورة براءة

التوبة هي الوحيدة التي لم تبدأ بالبسملة كما هو الحال في كل سور القرآن.

وسبب غياب البسملة عن أول التوبة - على قول أغلب العلماء - هو أن مطلعها براءة وتهديد، وهي أكثر سورة تكلمت عن الكفار والمنافقين، فحرموا من البسملة ومن معاني الرحمة الموجودة فيها، وهذا هو المناسب لأولى كلماتها﴿بَرَآءَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴾[1].

وهناك سبب آخر وهو أحظ بالأثر، وهو أن المسلم عندما يقرأ القرآن ويبتدئ بـ (بسم الله الرحمن الرحيم) يشعر أنه انتقل من حال سابق لحال جديد، ومن شأن لشأن، وهذا المعنى غير مراد بين السورتين، فلما كانت الأنفال والتوبة كالسورة الواحدة، لم يناسب أن يفصل بينهما بالبسملة، ويدل لذلك ما رواه الترمذي[2] والنسائي[3]، عن ابن عباس، قال: قلت لعثمان: "ما حملكم على أن عمدتم إلى الأنفال وهي من المثاني وإلى براءة وهي من المئين، فقرنتم بينهما ولم تكتبوا سطر بسم الله الرحمان الرحيم؟ فقال عثمان: إن رسول الله كان إذا نزل عليه الشيء يدعو بعض من يكتب عنده فيقول ضعوا هذه في السورة التي فيها كذا وكذا، وكانت الأنفال من أوائل ما نزل بالمدينة، وبراءة من آخر القرآن، وكانت قصتها شبيها بقصتها، وقبض رسول الله ﷺ ولم يبين لنا أنها منها، فظننت أنها منها فمن ثم قرنت بينهما ولم أكتب بينهما سطر بسم الله الرحمان الرحيم"، وحسن الترمذي هذا الأثر، وفي متنه إشكالات ليس هذا موطن بحثها.

ولذا اختلف كتبة المصاحف في زمن عثمان في الأنفال وبراءة هل هما سورة واحدة أو هما سورتان، فتركوا فرجة فصلا بينهما مراعاة للاختلاف.

وكلا السببين صحيح، وليس بينهما تعارض.

---

(١) ينظر: أحكام القرآن لابن العربي (٢/٤٤٥).

(٢) ح(٣٠٨٦).

(٣) ح(٧٩٥٣).

ثالثاً: حزبها، أي: "موضعها من المصحف العثماني"

هي قريبة مما سبق ذكره في الأنفال، فهي داخلة في حزب السبع الطوال باعتبارها هي والأنفال سورة واحدة، وموضوع حزب السبع الطوال يدور حول ثلث الأحكام فالقرآن ثلاثة أثلاث: توحيد وأحكام وأخبار، وهذه كلها ظاهرة في سورة براءة:

فحين تنتصر أمة ما يضطر أعداؤها الداخليين إلى النفاق خوفاً على أنفسهم، وهؤلاء يشكّلون عدوّاً جديداً وخطراً داهماً لابد من نور تام يكشف صفاتهم ويفضح أعيانهم، ثم علمٍ محكم بكيفية تعامل المجتمع المؤمن معهم.

وحين تكتمل قوة أمة لها رسالة ربانية سماوية؛ فيجب عليها أن تزيل كل السدد والحواجب التي تمنع من وصول رسالتها للعالمين فيما بين الخافقين، دون استثناء لشبر واحد من الأرض.

رابعاً: متى نزلت وأين؟ (موضعها الزماني والمكاني)

هذه السورة من أواخر السور نزولاً، فهي مدنية عند الجميع، وفي الصحيحين عن البراء بن عازب موقوفاً: أنها آخر سورة نزلت كاملة[1]. وهذا قول كثير من المفسرين، وهكذا جاء في ترتيب جابر بن زيد المشهور، فهي السورة الرابعة عشر بعد المائة في ترتيبه لنزول السور[2].

نزلت بعد الفتح المبين فتح مكة، أي: حال اكتمال قوة الإسلام والمسلمين، ولهذا الاكتمال واجبات وتراتيب لابد من الإتيان بها وتحمل تبعاتها؛ ولذا لما نزلت براءة أُمِر أن يبتدئ جميع الكفار بالقتال وثنيهم وكتابيهم، سواء كفوا عنه أولم يكفوا، وأن ينبذ إليهم تلك العهود المطلقة التي كانت بينه وبينهم، وقيل له فيها: ﴿جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ﴾ [٧٣] بعد أن كان قد قيل له: ﴿وَلَا تُطِعِ ٱلْكَٰفِرِينَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَدَعْ أَذَىٰهُمْ﴾[الأحزاب:٤٨] .

وقبل الخلوص من : أين ومتى نزلت سورة براءة؛ فيحسن بنا الوقوف على أصناف وشرائح المجتمع المسلم كما ذكرته وفصلته السورة؛ لأن في فهم هذا فهم لآياتها كيف تنزلت؟ ومن

---

(١) البخاري ح(٤٣٦٤)، مسلم ح(١٦١٨).

(٢) التحرير والتنوير (٩٧/١٠).

تخاطب؟ ولِمَ أمرت أو نهت ؟

أصناف المجتمع المسلم كما نبهت عليه سورة براءة: ذكرت السورة ثمانية أصناف كلها ضمن نسيج المجتمع المسلم، وهذه الإشارة لها دلالة مهمة تتعلق بحال المجتمع المسلم بعد كمال قوته، فقد يظن ظان أنه لن يبقى فيه إلا الأتقياء الأنقياء لاكتمال قوة الدين والدنيا معا، فكذب الله هذا الظن، وحذر من الغفلة، وأمر بأخذ الحيطة، وفصّل وبيّن وقسّم فئات المجتمع إلى ثمان فئات، وهي في السورة كما يلي:

١. أهل الله ورسوله ﷺ من السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار، وهم من استفتحت براءة بهم (براءة من الله ورسوله) والمؤمنون تبع لهم.

وتكررت الآيات في بيان صفاتهم كما قال تعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾﴾[١٦]، وقال ﴿وَٱلسَّٰبِقُونَ ٱلْأَوَّلُونَ مِنَ ٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ وَٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِىَ ٱللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا۟ عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى تَحْتَهَا ٱلْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَآ أَبَدًا ۚ ذَٰلِكَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾﴾ [١٠٠]. وغيرها من الآيات.

٢. **الكفار محاربون وغير محاربين،** كما قال في مطلع السورة ﴿فَسِيحُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۙ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُخْزِى ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٢﴾ وَأَذَٰنٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦٓ إِلَى ٱلنَّاسِ يَوْمَ ٱلْحَجِّ ٱلْأَكْبَرِ أَنَّ ٱللَّهَ بَرِىٓءٌ مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ۙ وَرَسُولُهُۥ ۚ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِى ٱللَّهِ ۗ وَبَشِّرِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ بِعَذَابٍ أَلِيمٍ ﴿٣﴾﴾[٢-٥]. وغيرها.

٣. **المنافقون من أهل المدينة ممن مرد على النفاق** واتخذوا مسجد الضرار، وأكثر آيات التوبة فيهم، كما قال تعالى: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٧٣﴾ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ۚ وَمَا نَقَمُوٓا۟ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ ۚ فَإِن يَتُوبُوا۟ يَكُ

خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْا يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِي الْأَرْضِ مِن وَلِيٍّ وَلَا نَصِيرٍ (٧٤)﴾[٧٣-٧٤]. وغيرها كثير.

٤. **البدو الجفاة الذين جمعوا جهلا وقسوة** كما قال تعالى ﴿الْأَعْرَابُ أَشَدُّ كُفْرًا وَنِفَاقًا وَأَجْدَرُ أَلَّا يَعْلَمُوا حُدُودَ مَا أَنزَلَ اللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾[٩٧].

٥. **بعض البدو ممن حسن إسلامه** ﴿وَمِنَ الْأَعْرَابِ مَن يُؤْمِنُ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَيَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ قُرُبَاتٍ عِندَ اللَّهِ وَصَلَوَاتِ الرَّسُولِ أَلَا إِنَّهَا قُرْبَةٌ لَّهُمْ سَيُدْخِلُهُمُ اللَّهُ فِي رَحْمَتِهِ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩٩)﴾[٩٩].

٦. **الفقراء والمرضى ممن كان له عذر ولم يستطع أن يشارك المؤمنين في جهادهم وغزوهم** لعجزه عن النفقة أو لمرضه ونحو ذلك؛ فهؤلاء لهم مثل أجر من غزى، كما قال تعالى: ﴿لَّيْسَ عَلَى الضُّعَفَاءِ وَلَا عَلَى الْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى الَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا لِلَّهِ وَرَسُولِهِ مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ (٩١) وَلَا عَلَى الَّذِينَ إِذَا مَا أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَا أَجِدُ مَا أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ الدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا مَا يُنفِقُونَ (٩٢) ۞ إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَسْتَأْذِنُونَكَ وَهُمْ أَغْنِيَاءُ رَضُوا بِأَن يَكُونُوا مَعَ الْخَوَالِفِ وَطَبَعَ اللَّهُ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٩٣)﴾[٩١-٩٣].

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: "**إن بالمدينة أقواما ما قطعتم واديا، ولا سرتم مسيرًا إلا وهم معكم". قالوا: وهم بالمدينة؟ قال: "نعم، حبسهم العذر**"[(١)].

٧. **عصاة بادروا بالتوبة وألحوا في طلب قبولها**: ﴿وَآخَرُونَ اعْتَرَفُوا بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا عَمَلًا صَالِحًا وَآخَرَ سَيِّئًا عَسَى اللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ﴾

---

(١) البخاري ح(٤٤٢٣)، مسلم ح(١٩١١).

[١٠٢]، وهؤلاء وضّح الله تعالى في الآية التي بعدها للرسول ﷺ كيف يتعامل معهم ﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلَوٰتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾[١٠٣] فالصدقة منهم تطهّرهم ، وتكون سبباً في أن يستغفر الصالحون لهم.

ومن هؤلاء الذين خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وبادر إلى التوبة أبو لبابة ؓ قال ابن عباس: "نزلت في أبي لُبابة وجماعة من أصحابه، تخلفوا عن غزوة تبوك، فلما رجع النبي ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسواري المسجد، وحلفوا لا يحلهم إلا رسول الله ﷺ، فلما نزلت آية ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمْ﴾[١٠٢] أطلقهم النبي ﷺ، وعفا عنهم، وتصدق أبو لبابة بثلث ماله، وهو الذي قال الله فيه وفي أصحابه:﴿خُذْ مِنْ أَمْوَٰلِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا﴾[١٠٣] "(١).

٨. **عصاة نادمون انتظروا توبة الله عليهم وهم الذين قال الله فيهم:**﴿وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ [١٠٦].

وهم المخلفون الثلاثة: هلال بن أمية، ومرارة بن الربيع، وكعب بن مالك، وقد تاب الله عليهم بعد ذلك وأنزل توبته عليهم، فقال سبحانه: ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓاْ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١١٨].

خامساً : فيمَ نزلت؟ (مقصودها)

مقصود السورة ظاهر من أسمائها، وزمن تنزلها، ومطلعها وختامها وما تكرر فيها، فالسورة . والعلم عند الله . في: "**واجب المسلمين حال تمام قوتهم في تعاملهم مع أصناف ثلاثة: أعدائهم في الداخل، وأعدائهم في الخارج، وعصاتهم إذا تابوا** ".

---

(١) جامع البيان (٦٥٢/١١).

○ **وتفصيلاً هي تدور حول ثلاثة مقاصد رئيسة:**

١. علاقة المسلمين بالمشركين وأهل الكتاب حال كمال قوة المسلمين.

٢. كشف أسرار المنافقين وفضح دواخلهم من خلال ما يبدوا من فلتات أقوالهم وأفعالهم.

٣. فتح باب التوبة والأوبة للمسلمين ممن شابه بفعله بعض أفعال المنافقين ولم يكن منهم ليعودوا لحضنهم الذي ربوا وتربوا فيه، فهي أكثر سورة في القرآن ذُكرت فيها كلمة التوبة فذُكرت فيها ١٧ مرة، في حين ذُكرت في البقرة ١٣ مرة، وفي آل عمران ٥ مرات فقط.

أما الأمر الأول : وهو علاقة المسلمين بالمشركين والكفار فالعهود بيننا وبينهم على ثلاثة أقسام : عهد مؤمد لازم ، وعهد مطلق جائز ، وعهد مؤبد غير جائز ، وهذا شرحها : .

١. **عهد مؤبد**، بأن يقال للكفار: هذا عهد بيننا ألا نقاتلكم أبدا، وهذا لا يجوز؛ لأنك إذا عاهدت فأنت بين أمرين: إما أن تفي وهذا يقتضي إسقاط الجهاد، وإما لا تفي ، وهذا يتضمن الغدر .

٢. **عهد مؤمد لزمن وأمد محدد**، وهذا لازم باتفاق إذا كان عشر سنين فأقل، وأما أكثر من عشر سنين؛ فهذا فيه خلاف منهم من أجازه وقال: إن العشر وقعت اتفاقاً ولم ينه عن أقل ولا أكثر، والقول الثاني أقوى من جهة الدليل، فالعشر لم تكن تحديداً لأطول مدة للعهد، لكن جرى الاتفاق بين النبي ﷺ وبين كفار مكة عليها، لكن إن كانت مدة العهد طويلة جدا فهي بمعنى المؤبد ولا تجوز.

والعهد المؤمّد راجع إلى حال المسلمين، فإن اقتضت المصلحة تمديد العهد فلا بأس حتى ينقضي سببه ، يقول ابن تيمية في الفتاوى الكبرى (٥ / ٥٤٢): باب الهدنة: "ويجوز عقدها مطلقا ومؤقتا لازم من الطرفين يجب الوفاء به ما لم ينقضه العدو ولا ينقض بمجرد خوف الخيانة في أظهر قولي العلماء، وأما المطلق فهو عقد جائز يعمل الإمام فيه بالمصلحة".

٣- **العهد المطلق**، وفيه خلاف والجمهور على جوازه، قال ابن القيم: "والقول الثاني وهو الصواب، أنه يجوز عقدها مطلقة ومؤقتة، فإذا كانت مؤقتة جاز أن تجعل لازمة؛ ولو جعلت جائزة بحيث يجوز لكل منهما فسخها متى شاء كالشركة والوكالة والمضاربة ونحوها جاز ذلك

لكن بشرط أن ينبذ إليهم على سواء.

ويجوز عقدها مطلقة، وإذا كانت مطلقة لم يمكن أن تكون لازمة التأبيد، بل متى شاء نقضها وذلك أن الأصل في العقود أن تعقد على أي صفة كانت فيها المصلحة والمصلحة، قد تكون في هذا وهذا، وللعاقد أن يعقد العقد لازماً من الطرفين وله أن يعقده جائزا يمكن فسخه إذا لم يمنع من ذلك مانع شرعي، وليس هنا مانع، بل هذا قد يكون هو المصلحة؛ فإنه إذا عقد عقدا إلى مدة طويلة فقد تكون مصلحة المسلمين في محاربتهم قبل تلك المدة"(١).

وإن كان مؤقتاً فيجب الوفاء به ما لم يغدروا، ولا يكفي مجرد خوف الخيانة منهم لنقض العهد معهم، كما قال تعالى ﴿إِلَّا ٱلَّذِينَ عَٰهَدتُّم مِّنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ثُمَّ لَمْ يَنقُصُوكُمْ شَيْـًٔا وَلَمْ يُظَٰهِرُوا۟ عَلَيْكُمْ أَحَدًا فَأَتِمُّوٓا۟ إِلَيْهِمْ عَهْدَهُمْ إِلَىٰ مُدَّتِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَّقِينَ﴾[٤].

- حكم الموالاة والتولي للكافرين ومظاهرتهم على المسلمين

سبق تفصيل ذلك مطولاً في المائدة.

- **صفات المنافقين كما في سورة التوبة :**

سأقتصر على أبرزها، وهي خمس عشرة (١٥) صفة:

كان المنافقون يخشون أن تنزل على المؤمنين سورة تكشف سترهم وتعري خبثهم، فأنزل الله سورتين عظيمتين في هذا الأمر، وهما الفاضحة والمنافقون؛ حتى قال سبحانه في المشقشقة: ﴿يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ﴾[٦٤].

الصفة الأولى: المنافق إنما يريد الدنيا، ويدور معها حيث دارت، ويحب المال حباً جماً لا يعادله شيء في قلبه.

قال الله تعالى:﴿لَوْ كَانَ عَرَضًا قَرِيبًا وَسَفَرًا قَاصِدًا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ

---

(١) أحكام أهل الذمة (٢/٨٧٦).

بَعُدَتْ عَلَيْهِمُ ٱلشُّقَّةُ﴾[٤٢].

وقال تعالى: ﴿وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِي ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ﴾[٥٨].

فلا تعجب أن ترى أكثرهم من أهل المال والدنيا الفارهة، فما ذاك إلا كما قال الله تعالى: ﴿فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَٰلُهُمْ وَلَآ أَوْلَٰدُهُمْ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ﴾ [٥٥].

الصفة الثانية : الكذب والحلف عليه، ويدفعهم إلى ذلك الخوف والجبن الذي تملكهم.

قال الله تعالى: (وسيحلفون بالله لو استطعنا لخرجنا معكم يهلكون أنفسهم والله يعلم إنهم لكاذبون) الآية ٤٢ ، وقال تعالى: (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأً أو مغارات أو مُدَّخَلاً لوَلّوا إليه وهم يجمحون) الآية ٤٢.

ومن جمع كلامهم وتتبع مواقفهم، أدرك ذلك بيسير من التتبع والعناء.

الصفة الثالثة :كراهية القتال والشهادة في سبيل الله.

قال الله تعالى: ﴿عَفَا ٱللَّهُ عَنكَ لِمَ أَذِنتَ لَهُمْ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ وَتَعْلَمَ ٱلْكَٰذِبِينَ ﴿٤٣﴾ لَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلْمُتَّقِينَ ﴿٤٤﴾ إِنَّمَا يَسْتَـْٔذِنُكَ ٱلَّذِينَ لَا يُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ وَٱرْتَابَتْ قُلُوبُهُمْ فَهُمْ فِي رَيْبِهِمْ يَتَرَدَّدُونَ ﴿٤٥﴾ ۞ وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾﴾[٤٣-٤٦].

فهم ليس شيء أكره إليهم من اصطفاف أقدامهم للقتال، ويبيعون دينهم وعقيدتهم ومبادئهم وأولادهم وأوطانهم في سبيل النجاة من صف القتال، ولا يؤمنون بوعد الله للشهداء بل يسخرون منه ومن يذكر به.

الصفة الرابعة : دخولهم في صف المؤمنين بقصد السعي لهدم الصف والتفرقة وتقليب الأمور؛ لتبدوا على غير حقيقتها فيغتر بها أغرار سماعون لهم.

قال الله تعالى: ﴿لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ لَقَدِ ٱبْتَغَوُا۟ ٱلْفِتْنَةَ مِن قَبْلُ وَقَلَّبُوا۟ لَكَ ٱلْأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ ٱللَّهِ وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[٤٧-٤٨].

فمتى كانت عصابة مؤمنة على رأي واحد، فجاءهم من يخلخل صفهم ويوسع في ثغراتهم، فليعلموا أنه منافق نفاقاً أصغر أو أكبر؛ فالمؤمن لا يزيد أهله إلا قُرباً ومودة واعتصاماً بالجماعة.

وهذه الفئة المؤمنة ستسمع من أهل الفتنة شبهاً وأدلة وآيات وأحاديث ساقوها ليحدثوا الخبال في الصف المؤمن ويبتغون فيهم الفتنة، وفينا سماعون لهم يعجبهم بيانهم وفصاحتهم، فاحذر أن تكون منهم ولو بمجرد الاستماع لهم.

الصفة الخامسة : الحزن بنصر المسلمين والفرح بانكسارهم وتربص الدوائر بهم.

قال الله تعالى: ﴿إِن تُصِبْكَ حَسَنَةٌ تَسُؤْهُمْ ۖ وَإِن تُصِبْكَ مُصِيبَةٌ يَقُولُوا۟ قَدْ أَخَذْنَآ أَمْرَنَا مِن قَبْلُ وَيَتَوَلَّوا۟ وَّهُمْ فَرِحُونَ﴾[٥٠] ، وقال تعالى: ﴿وَمِنَ ٱلْأَعْرَابِ مَن يَتَّخِذُ مَا يُنفِقُ مَغْرَمًا وَيَتَرَبَّصُ بِكُمُ ٱلدَّوَآئِرَ﴾ [٩٨].

وهذه صفة من يفرح في هذا الزمن بانتصار دولة بني صهيون على المجاهدين في غزة أو الأمريكان على الأفغان، ونحو ذلك.

الصفة السادسة: الكسل في العبادة خصوصاً عند الصلاة والنفقة في سبيل الله.

قال تعالى: ﴿وَلَا يَأْتُونَ ٱلصَّلَوٰةَ إِلَّا وَهُمْ كُسَالَىٰ وَلَا يُنفِقُونَ إِلَّا وَهُمْ كَٰرِهُونَ﴾[٥٤] ، وقال:﴿فَرِحَ ٱلْمُخَلَّفُونَ بِمَقْعَدِهِمْ خِلَٰفَ رَسُولِ ٱللَّهِ وَكَرِهُوٓا۟ أَن يُجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَقَالُوا۟ لَا تَنفِرُوا۟ فِى ٱلْحَرِّ﴾[٨١].

وانظر حال بعض الناس عند حصول كارثة على المسلمين كما حصل عام ١٤٣٥ هجرية

في سوريا وغزة و بورما؛ فلا تجدهم ينفقون أموالهم إلا كُرها، ويكون ذلك أمام ملك أو أمير أو وزير، بل بعضهم يثبط الناس عن النفقة في سبيل الله ويشككهم في العاملين المبادرين لإغاثة أهليهم المصابين المكلومين، وتجده تارة يصيح في الناس: لا تدفعوا أموالكم إلا إلى الجهات الرسمية، ويختار منها واحدة مما تتوافق مع هواه ويهمل البقية، وتجده لم يدفع حتى للجهة الوحيدة التي زكاها؛ لأن لا يثق بها، وإنما كل همة ألا تصل الإغاثة عن طريق من يكره، حتى لو أدى ذاك إلى موت أطفال المسلمين جوعاً وبرداً ومرضاً.

فهؤلاء قد تلبسوا بشعب كثيرة من شعب النفاق.

الصفة السابعة : اتهام قادة المسلمين وعلمائهم بضعفهم وقلة إدراكهم وضعف حزمهم وانخداعهم بأي مكّار مخادع .

قال الله تعالى: ﴿ وَمِنْهُمُ ٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلنَّبِيَّ وَيَقُولُونَ هُوَ أُذُنٌ ۚ قُلْ أُذُنُ خَيْرٍ لَّكُمْ ﴾ [٦١]، أي: يسمع كل ما قيل له ويتأثر به.

فهذا الصنف تجد قولهم دوما في عيب قادة المسلمين، فإن كان حازما، قالوا: جبار متكبر دكتاتور متسلط، وإن كان لينا رفيقا، قالوا: درويش لا يفهم في السياسة ولا يصلح للرئاسة، وإن كان فصيحاً صيتاً، قالوا: منافق كذاب عليم اللسان، وإن كان تأتاءً غير مبين، قالوا: وهل يصلح الأطرم رئيساً.

وهكذا لا يسلم منهم مؤمن كان له بين الناس أثر.

الصفة الثامنة : يحرصون على إرضاء الناس ولا يحرصون على إرضاء رب العالمين.

قال الله تعالى: ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ لَكُمْ لِيُرْضُوكُمْ وَٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ أَحَقُّ أَن يُرْضُوهُ إِن كَانُوا۟ مُؤْمِنِينَ ﴾[٦٢].

وكم تسمع من هؤلاء أيماناً مغلظة أنهم وطنيون، وما تكلموا إلا من أجل المجتمع وحرصاً على أمن ولحمة الوطن، ودرء لفتنة الاختلاف عنه؛ لكن مواقفهم تكشف خبيء دواخلهم.

الصفة التاسعة : استهزاء المنافقين بالإسلام وأهله.

قال الله تعالى:﴿ يَحْذَرُ الْمُنَافِقُونَ أَنْ تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُمْ بِمَا فِي قُلُوبِهِمْ قُلِ اسْتَهْزِئُوا إِنَّ اللَّهَ مُخْرِجٌ مَا تَحْذَرُونَ (٦٤) وَلَئِنْ سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ قُلْ أَبِاللَّهِ وَآيَاتِهِ وَرَسُولِهِ كُنْتُمْ تَسْتَهْزِئُونَ (٦٥)﴾[٦٤-٦٥].

قال الله تعالى: ﴿ الَّذِينَ يَلْمِزُونَ الْمُطَّوِّعِينَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ فِي الصَّدَقَاتِ وَالَّذِينَ لَا يَجِدُونَ إِلَّا جُهْدَهُمْ فَيَسْخَرُونَ مِنْهُمْ سَخِرَ اللَّهُ مِنْهُمْ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾[٧٩].

وكم تجد اليوم من الاستهزاء بالدين وأهله في صحافتنا وعبر قنواتنا الفضائية، وقد جمعها بعض الغيورين مما نشر في الصحافة الورقية فقط، فبلغت أكثر من خمسمائة صفحة ما بين مقال وخبر ورسم ونحو ذلك، وللحية وتعدد النساء والجهاد من ذلك النصيب الأكبر.

وهذا الاستهزاء إن كان بالله أو آياته أو شرعه أو رسوله ﷺ، فهذا بنص الآية كفر أكبر مخرج من الملة ، وإن كان بأهل الدين والعلم وحملة الرسالة والدعوة فهو كبيرة من كبائر الذنوب يجب على ولي الأمر أن يعزر صاحبها، والاستهزاء والسخرية كلها محرمة في حق أي مسلم، فكيف بأهل العلم وحملة الدعوة.

الصفة العاشرة : يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويبخلون ويفسقون.

قال الله تعالى: ﴿ وَالْمُنَافِقَاتُ بَعْضُهُمْ مِنْ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمُنْكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ نَسُوا اللَّهَ فَنَسِيَهُمْ إِنَّ الْمُنَافِقِينَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴾ [٦٧].

وهذا في هذا العصر كثير جداً، فمنهم:

من يدعوا إلى اختلاط الرجال بالنساء في أماكن العمل والتعليم وينهى عن فصلهم، ويعتبر العفة رذيلة ويقبحها ويعتبر الفاحشة فضيلة ويزينها.

ومنهم من يزين الربا ويجعله ضرورة اقتصادية، ويحارب المصارف الإسلامية، ويقبحها عند كل مسؤول يميل إليها. ومثل ذلك في مسائل الاعتقاد، فيزينون القبور والأضرحة ودعاءها من دون الله، ويصفون من يدعو إلى الدين الخالص بالوهابية الإرهابية. والأمثلة في هذا الباب لا تنتهي..

الصفة الحادية عشرة: ينطقون من بين فلتات ألسنتهم كلمة الكفر، ويجهدون في إنكار ذلك بكل سبيل:

قال الله تعالى: ﴿ يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُوا۟ وَلَقَدْ قَالُوا۟ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُوا۟ بَعْدَ إِسْلَـٰمِهِمْ وَهَمُّوا۟ بِمَا لَمْ يَنَالُوا۟ ﴾[٧٤].

فكم تسمع من يزين للناس دين النصارى بسبب ما عليه دولهم من الحضارة والرقي المادي، وقرأنا في الصحف من يقول: لا إله إلا الله لا تقتضي نفياً ولا إثباتاً، وخرجت لنا أفلام للأطفال أبطالها ٩٩ شخصية كل واحدة منها باسم الله، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً.

الصفة الثانية عشرة :عدم الوقوف في صف المؤمنين عند الشدائد، بل يعتذرون بأدنى عذر ليفروا عن مواجهة الشدائد، مهما كان العذر سامجاً أو بارداً.

قال الله تعالى: ﴿ وَإِذَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ أَنْ ءَامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَجَـٰهِدُوا۟ مَعَ رَسُولِهِ ٱسْتَـْٔذَنَكَ أُو۟لُوا۟ ٱلطَّوْلِ مِنْهُمْ وَقَالُوا۟ ذَرْنَا نَكُن مَّعَ ٱلْقَـٰعِدِينَ ﴿٨٦﴾ رَضُوا۟ بِأَن يَكُونُوا۟ مَعَ ٱلْخَوَالِفِ وَطُبِعَ عَلَىٰ قُلُوبِهِمْ فَهُمْ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٨٧﴾ ﴾[٨٦-٨٧].

وانظر ذلك في حدث الأمة في هذا العصر من عام ١٤٣٣ هـ، وهي ثورة شباب سوريا، وكذا في مصر وليبيا وغيرها، ويعتذرون عن ذلك بأن الثورة تسببت في موت مئات الآلاف وتخريب الديار، وهذا من جهة الواقع دون اعتبار من المتسبب فيها صحيح، لكن ما الواجب المتعين وقد حصل ما حصل؟ هل نترك الناس تحت رحمة من لا ذرة رحمة في قلبه ولا قلوب من معه ومن يدعمه؟ أو الواجب هو التحرك لنجدتهم بكل سبيل فقد وقع ما وقع وبحت أصوات الثكالى والأيتام تطلب الغوث والعون من الله ثم منكم معشر المسلمين.

الصفة الثالثة عشرة : حذق بعض المنافقين النفاق ومردوا عليه ومهروا فيه مما أخفى أمرهم حتى على رسول الله ﷺ.

قال الله تعالى: ﴿وَمِمَّنْ حَوْلَكُم مِّنَ ٱلْأَعْرَابِ مُنَـٰفِقُونَ ۖ وَمِنْ أَهْلِ ٱلْمَدِينَةِ ۙ مَرَدُوا۟ عَلَى ٱلنِّفَاقِ لَا تَعْلَمُهُمْ﴾[١٠١].

وهذا واقع مشاهد فكم من رؤوس النفاق عاشوا بين المسلمين سنين عددا، فأحسنوا بهم الظن، ومدحوهم بكل جميل من القول، ثم تكشفت أقنعتهم عن وجوه سود وأنياب ذئاب خنست حتى جاء حينها التي تنتظر فأعملت أنيابها في جسد المسلمين وقطعت أوصالها.

وهذا عمر الفاروق الملهم وثق بخارجي كلب من كلاب النار وهو عبدالرحمن بن ملجم، وابنه عبدالله بن عمر وثق بالمختار الثقفي الكذاب، والحسين بن علي ريحانة رسول الله ﷺ وثق بأهل العراق فخانوه حتى قتل رضي الله عنه، وخطّاب الشيشان وثق بمقربين منه فقتلوه، وهذا باب لا تنتهي نماذجه؛ والمقصود التوضيح لا الحصر.

الصفة الرابعة عشرة: إنشاء مؤسسات وكيانات وأحزاب وجماعات وأوضاع ظاهرها الإسلام وباطنها محاولات لمحاربة الإسلام بتشويهه أو تمييع مبادئه أو صرف الأنظار عن ذاته وحُماته أو التفريق بين علمائه وأنصاره.

قال تعالى: ﴿وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُواْ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ﴾ [١٠٧].

وأمثلة ذلك كثيرة وأوضحها مثالا في هذا العصر ما يسمى ب"الدولة الإسلامية" المشهورة ب "داعش"، وأثرها في تشويه صورة الجهاد بل وفي محاولة القضاء على جهاد الشام، وأغلب فرق الصوفية خصوصاً في مصر وبقية دول أفريقيا فهي أغلبها طوائف وثنية هي لدين أبي جهل أقرب منها لدين أبي القاسم ﷺ .

الصفة الخامسة عشرة : استهزاؤهم بآيات القرآن، وازدياد كفرهم كلما نزلت، فلا تزيدهم آيات القرآن إلا عمى وضلالا ، قال تعالى: ﴿وَإِذَا مَآ أُنزِلَتْ سُورَةٌ فَمِنْهُم مَّن يَقُولُ أَيُّكُمْ زَادَتْهُ هَٰذِهِۦٓ إِيمَٰنًا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ فَزَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَهُمْ يَسْتَبْشِرُونَ ﴿١٢٤﴾ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَتْهُمْ رِجْسًا إِلَىٰ رِجْسِهِمْ وَمَاتُواْ وَهُمْ كَٰفِرُونَ ﴿١٢٥﴾﴾[١٢٤-١٢٥].

ومن أظهر صور الاستهزاء في هذا العصر حمل آيات القرآن على نقيض مقصودها، فإذا تليت عليه آيات القرآن يقول: القرآن لم ينزل لنا، فنحن عشنا في زمن متحضر، لكنه ليهذب

أخلاق الأعراب الجفاة في الجاهلية الأولى، أو الاستهزاء بالحجاب وتفضيل العري عليه، أو عدم الإقرار بتحريم الربا وعده تخلفاً، ونحو ذلك.

ومن أراد المزيد في هذا الباب فليطالع بحث (صفات المنافقين في سورة التوبة) ، تأليف الدكتور / غسان عبد السلام حمدون.

• التوبة في سورة التوبة :

سبق أن كلمة (التوبة) تكررت في هذه السورة (١٧ مرة) ، وهو أكثر من أية سورة أخرى في القرآن كله ، فقد وردت في سورة البقرة (١٣ مرة)، والنساء (١٢ مرة)، وفي المائدة (٥ مرات) ، وتكرار ذكر التوبة فيها؛ لأنها - والله أعلم - كانت آخر سورة نزلت من القرآن على الرسول ﷺ، فأراد الله تعالى بعد أن فضح الكفار والمنافقين والمتخاذلين وحذّر المؤمنين؛ أن يعلمهم أن باب التوبة مفتوح لهم فمن أرادها فليلج من باب التوبة قبل أن يغلق الباب، فسبحان الذي وسعت رحمته كل شيء وسبقت رحمته غضبه.

وتتوالى الآيات في التوبة بالحث على التوبة: فتبدأ الآيات بالتهديد وتحريض المؤمنين وفضح للمنافقين ثم تفتح باب التوبة، ثم التهديد ثم التوبة، وهكذا سياق كل آيات السورة، وحتى المؤمنين تطالبهم السورة بالتوبة، فهي تتحدث عن أخطاء وصفات ثم تفتح باب التوبة، ثم أخطاء أخرى ثم توبة، ثم تدعو المؤمنين للقتال ونصرة الدين والتحفيز لإلجاء المنافقين على التوبة، وهكذا في كامل السورة،،،

والتوبة تعطي كل صنف من أصناف البشرية التوبة الخاصة به، **وقد جاءت التوبة في التوبة مقسمة على فئات خمس ن وذكرتها مرتبة حسب ورودها في السورة:**

١. **توبة المنافقين والمستهزئين:** ﴿يَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ مَا قَالُواْ وَلَقَدْ قَالُواْ كَلِمَةَ ٱلْكُفْرِ وَكَفَرُواْ بَعْدَ إِسْلَٰمِهِمْ وَهَمُّواْ بِمَا لَمْ يَنَالُواْ وَمَا نَقَمُوٓاْ إِلَّآ أَنْ أَغْنَىٰهُمُ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ مِن فَضْلِهِۦ فَإِن يَتُوبُواْ يَكُ خَيْرًا لَّهُمْ وَإِن يَتَوَلَّوْاْ يُعَذِّبْهُمُ ٱللَّهُ عَذَابًا أَلِيمًا فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ وَمَا لَهُمْ فِى ٱلْأَرْضِ مِن وَلِىٍّ وَلَا نَصِيرٍ﴾[٧٤].

٢. توبة العصاة المُلحين: ﴿وَءَاخَرُونَ ٱعۡتَرَفُواْ بِذُنُوبِهِمۡ خَلَطُواْ عَمَلٗا صَٰلِحٗا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٞ رَّحِيمٌ﴾[١٠٢].

٣. توبة عامة: ﴿أَلَمۡ يَعۡلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ هُوَ يَقۡبَلُ ٱلتَّوۡبَةَ عَنۡ عِبَادِهِۦ وَيَأۡخُذُ ٱلصَّدَقَٰتِ وَأَنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١٠٤].

٤. توبة الله على النبي والمهاجرين والأنصار: ﴿لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ وَٱلۡأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِي سَاعَةِ ٱلۡعُسۡرَةِ مِنۢ بَعۡدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٖ مِّنۡهُمۡ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡۚ إِنَّهُۥ بِهِمۡ رَءُوفٞ رَّحِيمٞ﴾[١١٧].

٥. توبة العصاة المنكسرين : ﴿وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُواْ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلۡأَرۡضُ بِمَا رَحُبَتۡ وَضَاقَتۡ عَلَيۡهِمۡ أَنفُسُهُمۡ وَظَنُّوٓاْ أَن لَّا مَلۡجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيۡهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيۡهِمۡ لِيَتُوبُوٓاْۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ﴾[١١٨]الثلاثة الذين خلّفوا وتقاعسوا عن غزوة تبوك.

برّأنا الله جميعاً من النفاق وأهله ، ورزقنا توبة صادقة في الحياة وقبل الممات ،،

تمت بحمد الله،،

وبها تمت رسائل: كيف نقرأ السبع الطوال ؟

وعسى الله أن يتقبل وأن يتمم بقية سور القرآن العظيم ..

كتبه / عصام بن صالح العويد

في رياض التوحيد ١١ / ١٠ / ١٤٣٥هـ.

مسرد المراجع

١. القرآن الكريم.
٢. الإتقان في علوم القرآن، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ).
٣. أحكام القرآن، القاضي محمد بن عبد الله، أبو بكر بن العربي المعافري الاشبيلي المالكي (المتوفى: ٥٤٣هـ).
٤. أحكام القرآن، علي بن محمد بن علي، أبو الحسن الطبري، الملقب بعماد الدين، المعروف بالكيا الهراسي الشافعي (المتوفى: ٥٠٤هـ).
٥. إرشاد العقل السليم إلى مزايا الكتاب الكريم، أبو السعود العمادي، محمد بن محمد بن مصطفى (المتوفى: ٩٨٢هـ) .
٦. أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن، محمد الأمين بن محمد المختار بن عبد القادر الجكني الشنقيطي (المتوفى: ١٣٩٣هـ).
٧. إعلام الموقعين عن رب العالمين، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).
٨. الأم، أبو عبد الله محمد بن إدريس بن العباس بن عثمان بن شافع بن عبد المطلب بن عبد مناف المطلبي القرشي المكي (المتوفى: ٢٠٤هـ).
٩. البداية والنهاية، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).
١٠. التحرير والتنوير، محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي (المتوفى: ١٣٩٣هـ).
١١. تفسير ابن أبي حاتم، أبو محمد عبد الرحمن بن محمد بن إدريس بن المنذر التميمي، الحنظلي، الرازي ابن أبي حاتم (المتوفى: ٣٢٧هـ).
١٢. تفسير القرآن العظيم، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).
١٣. تفسير مجاهد، أبو الحجاج مجاهد بن جبر التابعي المكي المخزومي (المتوفى: ١٠٤هـ).

١٤. تهذيب التهذيب، أبو الفضل أحمد بن علي بن محمد بن أحمد بن حجر العسقلاني (المتوفى: ٨٥٢هـ).
١٥. جامع البيان عن تأويل آي القرآن، محمد بن جرير بن يزيد بن كثير بن غالب الآملي، أبو جعفر الطبري (المتوفى: ٣١٠هـ).
١٦. الجامع لأحكام القرآن، أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر بن فرح الأنصاري الخزرجي شمس الدين القرطبي (المتوفى: ٦٧١هـ).
١٧. الجواهر الحسان في تفسير القرآن، أبو زيد عبد الرحمن بن محمد بن مخلوف الثعالبي (المتوفى: ٨٧٥هـ).
١٨. حاشية الشهاب على تفسير البيضاوي، شهاب الدين أحمد بن محمد بن عمر الخفاجي المصري الحنفي (المتوفى: ١٠٦٩هـ).
١٩. الدر المنثور في التفسير بالمأثور، عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (المتوفى: ٩١١هـ).
٢٠. الدرر السنية في الأجوبة النجدية، علماء نجد الأعلام، تحقيق: عبدالرحمن بن محمد بن قاسم.
٢١. زاد المسير في علم التفسير، جمال الدين، أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ).
٢٢. زاد المعاد في هدي خير العباد، محمد بن أبي بكر بن أيوب بن سعد شمس الدين ابن قيم الجوزية (المتوفى: ٧٥١هـ).
٢٣. سنن أبي داود، أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني (المتوفى: ٢٧٥هـ).
٢٤. سنن الترمذي، محمد بن عيسى بن سَوْرة بن موسى بن الضحاك، الترمذي، أبو عيسى (المتوفى: ٢٧٩هـ).
٢٥. سنن الدارمي، أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن الفضل بن بَهرام بن عبد الصمد الدارمي، التميمي السمرقندي (المتوفى: ٢٥٥هـ).
٢٦. سنن النسائي، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ).

٢٧. شعب الإيمان، أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي (المتوفى: ٤٥٨هـ).
٢٨. الصارم المسلول على شاتم الرسول، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن عبد السلام بن عبد الله بن أبي القاسم بن محمد ابن تيمية الحراني الحنبلي الدمشقي (المتوفى: ٧٢٨هـ).
٢٩. صحيح ابن حبان، محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (المتوفى: ٣٥٤هـ).
٣٠. صحيح البخاري، محمد بن إسماعيل، أبو عبد الله البخاري الجعفي.
٣١. صحيح مسلم، مسلم بن الحجاج، أبو الحسن القشيري النيسابوري (المتوفى: ٢٦١هـ).
٣٢. عمل اليوم والليلة، أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي (المتوفى: ٣٠٣هـ).
٣٣. غريب الحديث، أبو عُبيد القاسم بن سلاّم بن عبد الله الهروي البغدادي (المتوفى: ٢٢٤هـ).
٣٤. فتح الباري شرح صحيح البخاري، أحمد بن علي بن حجر، أبو الفضل العسقلاني الشافعي(المتوفى: ٨٥٢ هـ)
٣٥. فضائل القرآن، أبو الفداء إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي البصري ثم الدمشقي (المتوفى: ٧٧٤هـ).
٣٦. في ظلال القرآن، سيد قطب إبراهيم حسين الشاربي (المتوفى: ١٣٨٥هـ).
٣٧. قيام الليل للمروزي، أبو عبد الله محمد بن نصر بن الحجاج المَرْوَزِي (المتوفى: ٢٩٤هـ).
٣٨. الكشف والبيان عن تفسير القرآن، أحمد بن محمد بن إبراهيم الثعلبي، أبو إسحاق (المتوفى: ٤٢٧هـ).
٣٩. مجموع الفتاوى، تقي الدين أبو العباس أحمد بن عبد الحليم بن تيمية الحراني (المتوفى: ٧٢٨هـ).
٤٠. مجموع فتاوى ابن باز، عبد العزيز بن عبد الله بن باز (المتوفى: ١٤٢٠هـ).
٤١. المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز، أبو محمد عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن تمام بن عطية الأندلسي المحاربي (المتوفى: ٥٤٢هـ).

٤٢. مسند الإمام أحمد، أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ).

٤٣. مشكل الآثار، أبو جعفر أحمد بن محمد بن سلامة بن عبد الملك بن سلمة الأزدي الحجري المصري المعروف بالطحاوي (المتوفى: ٣٢١هـ).

٤٤. مصنف عبدالرزاق، أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني (المتوفى: ٢١١هـ).

٤٥. معالم التنزيل في تفسير القرآن، محيي السنة، أبو محمد الحسين بن مسعود البغوي (المتوفى: ٥١٠هـ).

٤٦. المعجم الأوسط، سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني (المتوفى: ٣٦٠هـ).

٤٧. الناسخ والمنسوخ، أبو جعفر النَّحَّاس أحمد بن محمد بن إسماعيل بن يونس المرادي النحوي (المتوفى: ٣٣٨هـ).

٤٨. النهاية في غريب الحديث والأثر، مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد ابن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير (المتوفى: ٦٠٦هـ).

٤٩. نواسخ القرآن، جمال الدين أبو الفرج عبد الرحمن بن علي بن محمد الجوزي (المتوفى: ٥٩٧هـ).

المحتويات



ثقافة قرآنية نقية

إطلاق مبادرات قرآنية حياتية، من خلال مشاريع إبداعية نقية، تبني مجتمعات مؤمنة آمنة، برؤية استراتيجية، وإدارة احترافية، وتنمية ذاتية

مشاريعنا

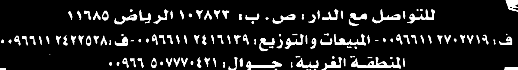






يدور هذا الحزب العظيم حول ثلث الأحكام المتعلقة بالعقيدة أو السلوك ، وغالب هذه الأحكام تتعلق بالضرورات الخمس: الدين، والنفس، والعقل، والعرض، والمال، وما يتبعها وينبني عليها من لوازم بناء المجتمع والدولة المسلمة ، ولذا افتتحت قصص السبع الطوال بقصة الخلافة والاستخلاف في الأرض، وختمت بقصة الثلاثة الذين خلفوا، ففي الأولى أبان عن الغاية الشرعية من خلق الإنسان، وفي الأخرى أبان عن الحقيقة الكونية وهو الضعف الذي لا ينفك عنه الإنسان؛ ولذا - والله أعلم - كان أول أمر في هذا الحزب العظيم هو الأمر بالتوحيد (يَا أَيُّهَا النَّاسُ اعْبُدُوا رَبَّكُمُ)، وأول نهي فيها هو النهي عن الشرك (فَلَا تَجْعَلُوا لِلَّهِ أَندَادًا) [البقرة: ٢١،٢٢]، وأول أمر في براءة هو بإعلان البراءة من المشركين، وآخر أمر فيها وفي حزب السبع الطوال هو الأمر بالقتال الغليظ، فبهما يتحقق تمام حفظ الدين والدنيا (يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا قَاتِلُوا الَّذِينَ يَلُونَكُم مِّنَ الْكُفَّارِ وَلْيَجِدُوا فِيكُمْ غِلْظَةً) [التوبة: ١٢٣].





للتواصل مع الدار: ص. ب: ١٠٢٨٢٣ الرياض ١١٦٨٥
ف: ٠٠٩٦٦١١٢٧٠٢٧١٩ - المبيعات والتوزيع: ٠٠٩٦٦١١٢٤١٦١٣٩ - ف: ٠٠٩٦٦١١٢٤٢٢٥٢٨
المنطقة الغربية: جوال: ٠٠٩٦٦٥٠٧٧٧٠٤٢١
البريد الالكتروني daralhadarah@hotmail.com
موقعنا الالكتروني www.daralhadarah.com.sa
الرقم الموحد: ٩٢٠٠٠٠٩٠٨





SR: 15

+966551531515
info@quraniclife.org